جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بأسيوط
المجلة العلمية

قضايا (الضمير) في البلاغة العربية

Issues of the Pronoun in Arabic Rhetoric

إعداد

د/ غادة محمد عبد المهيمن

مدرس البلاغة والنقد، بكلية الدراسات الإسلامية والعربية – بنات،

جامعة الأزهر، القاهرة

(العدد الرابع والأربعون)

(الإصدار الثالث-أغسطس)

(الجزء الرابع (١٤٤٧هـ /٢٠٢٥م)

الترقيم الدولي للمجلة (ISSN) 2536- 9083

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠٢٧/٦٢٧١م

قضايا (الضمير) في البلاغة العربية

غادة محمد عبد المهيمن

قسم البلاغة والنقد، كلية الدراسات الإسلامية والعربية ، بنات، جامعة الأزهر، القاهرة، مصر

البريد الإلكتروني : *Ghadah.Abdelmohaymen@azhar.edu.eg*

الملخص:

تزخر اللغة العربية بالكلمات والأساليب التي تساعد المتكلم على التعبير عن نفسه ومكنوناتها وآرائه وخبراته وغير ذلك، ومن هذه الأساليب ما يكون أثره في الكلام واضحا سهلا إدراكه، ومنها ما تدق صنعته فيكون كاللؤلؤ الخالص المخبوء في صدفته لا يدرك موقعه إلا غواص خبير، ومنها ما يخفى أثره فيما امتزج به من أساليب؛ فتكون حقيقة فاعليته في الكلام كحقيقة الذهب الأحمر المخبوء في قطعة حلي صفراء مرصعة بالجواهر اللامعة؛ يكون هو أساسها ومعدنها لكن العيون لا تميزه من بينها؛ فلا يعرف حقيقته إلا صائغ ماهر، ومن هذه الوسائل اللغوية الضمائر، فبلاغتها لا تظهر في الاستعمال الساذج وإنما في تفنن المتكلم في استعمالها وتوظيفها، والشأن في ذلك مثل الشأن في استعمال مختلف لأدوات اللغة وأساليبها، كالبذرة الطيبة يكون نباتها وثمرتها بحسب الأرض التي تستنبت فيها وما تلقاه من رعاية.

فالضمائر تساعد على كشف كوامن الصدور ودواخل النفوس، وتسهم في الإقناع والتخييل، فلها تأثيرها في العقل والوجدان، وبذلك تكون الضمائر كاشفة للضمائر، هذا بالإضافة لما لها من دور بارز وأساسي في الاختصار ورفع الالتباس وتحقيق التماسك النصي ، ومبحث الضمائر من المباحث المهمة في الدراسات التي تتعلق بقضية الذات والآخر وقضية الحضور والغياب؛ والدراسات التي تتناول العدول والإحالة وترابط الجمل والتماسك النصي والاستلزام الحواري؛ والدراسات التي تهتم

ببلاغة الاحتجاج والإقناع واستجلاء الجوانب النفسية في النص وغير ذلك، وبالرغم من هذا فإن أكثر الدراسات حول (الضمير) تتعلق بالجانب التقعيدي وتطبيقاته النحوية، وكثيرا ما أغفل الباحثون في الدراسات البلاغية التطبيقية دور الضمير ووظائفه فيما يدرسون؛ إلا أن يعرضوا له بلمحات سريعة وإشارات قليلة، مما حفزني لاختيار هذا الموضوع لجمع ما استطعت من مسائل البلاغة المتعلقة بـ(الضمير) من حيث المسلك والدلالة والمقتضيات والتوظيف؛ في مؤلف يشير إلى طريقه ويساعد في الاهتداء إلى لطائف سبيله، فجاءت هذه الدراسة بعنوان (قضايا (الضمير) في البلاغة العربية)، وقد تبع البحث المنهج الاستقرائي والمنهج الوصفي.

الكلمات المفتاحية: الضمائر، التكلم والخطاب ووالغيبة، الذاتوالآخر، الحضور والغياب، ضمير الشأن، الالتفات، ضمير الفصل، الفصاحة، البلاغة.

Issues of the Pronoun in Arabic Rhetoric

Ghada Mohamed Abdel-Mohaimen
Department of Rhetoric and Criticism, Faculty of Islamic and Arabic Studies for Girls, Al-Azhar University, Cairo, Egypt

Email: *Ghadah.Abdelmohaymen@azhar.edu.eg*

Abstract*:*

The Arabic language is rich with words and styles that help the speaker express himself, his innermost thoughts, opinions, experiences, etc. Some of these styles have a clear and easy-to-understand effect on speech, while others are meticulously crafted, like pure pearls hidden in their shells, only an expert diver can locate them. Others have a hidden effect in the styles they are mixed with, so their true effectiveness in speech is like red gold hidden in a piece of yellow jewelry studded with shining jewels. It is the basis and mineral, but eyes cannot distinguish it from among them. Only a skilled jeweler knows its true nature. Among these linguistic means are pronouns, whose eloquence does not appear in simple usage, but rather in the speaker's skill in using and employing them. The same applies to the use of various linguistic tools and styles, like a good seed, its growth and fruition are according to the soil in which it grows and the care it receives. Pronouns help reveal the hidden secrets of the heart and the innermost thoughts of the soul. They contribute to persuasion and imagination, and they influence the mind and conscience. Thus, pronouns reveal other pronouns. They also play a prominent and essential role in brevity, removing ambiguity, and achieving textual coherence. The subject of pronouns is an important topic in studies related to the issue of self and other, presence and absence, and studies that address deviation, reference, sentence coherence, textual coherence, and dialogic implication. Studies that focus on the rhetoric of protest, persuasion, and elucidating the psychological aspects of the text, among other things. Despite this, most studies on the pronoun relate to the grammatical aspect and its grammatical applications. Researchers in applied rhetorical studies often overlook the role and functions of the pronoun in their studies, except for brief glimpses and a few references. This prompted me to choose this topic to gather as much as I could of rhetorical issues related to the pronoun in terms of its approach, meaning, requirements, and employment, in a book that points out its path and helps in finding its subtleties. This study came under the title "Issues of the Pronoun in Arabic Rhetoric." The research followed the inductive and descriptive approaches.

Keywords*: Pronouns , speaking, discourse, and absence , self and other , presence and absence , pronoun of concern , attention , disjunctive pronoun , eloquence , rhetoric.*

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق أجمعين؛ سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد: فتحمل الضمائر عدة دلالات في نفس الوقت، فتدل على مقام التكلم أو الخطاب أو الغيبة، وتدل على التذكير أو التأنيث، وتدل على الإفراد أو التثنية أو الجمع، كما أنها عامل أساسي في ربط أجزاء النص داخليا؛ وكذا في الربط السياقي والإحالات الخارجية، ويستتبع ذلك تنوع وظائفها الدلالية في النص؛ وما تنقله من رؤية المتكلم؛ وخبايا نفسه وما تتركه من الآثار في عقول ونفوس السامعين، لذا فهي من العناصر المهمة جدا في الصياغة ونظم الكلام، ودراستها تكشف جوانب من اتجاهات المتكلم ومكنونات عقله وقدراته الإبداعية والفنية.

وقد كان ذلك مما حفزني لدراسة قضايا الضمير من الوجهة البلاغية، إلى جانب أن دراسة الجوانب النظرية وتتبع آراء العلماء فيها واستيضاح أسبابها وأصولها مما يساعد على تكوين العقل البلاغي؛ والحس النقدي؛ وينير الطريق أمام المبدع والأديب، فكانت تلك من أسباب اختياري لهذا الموضوع، فجاء البحث بعنوان (قضايا (الضمير) في البلاغة العربية)، في محاولة للتعرف على الأصول العامة لمسلك الضمير في النفوس؛ وتأثير دلالاته في السامعين؛ وأساليب العرب في توظيفه، وقد تبع البحث المنهج الاستقرائي والمنهج الوصفي، وجاء في تمهيد وأربعة مباحث، وسبق بمقدمة، وتلته خاتمة، وثبت المراجع.

وقد اشتملت المقدمة على تعريف بموضوع الدراسة ومشكلتها، وأسباب اختيار الموضوع، والهدف من البحث فيه، والمنهج المتبع.

وجاء في التمهيد استعراض سريع للأسس النحوية المتعلقة باستعمال الضمائر، ليكون تكأة للدراسة البلاغية، ولذا فقد اكتفيت من ذلك بما تحتاج الدراسة للتذكير به.

وجاء **المبحث الأول** بعنوان (مسلك الضمائر وأصل دلالاتها وتوظيفها)، وتناولت في **المبحث الثاني** (الالتفات)، وفي **المبحث الثالث** (وضع المضمر موضع المظهر)، أما **المبحث الرابع** فكان فيه (قضايا متنوعة)، وهي ضمير الفصل، والقضايا التي تتصل بضعف التأليف وهي عود الضمير المتصل بالفاعل المقدم على المفعول المؤخر، واتصال الضمير بـ(إلا)، واتصال ضميرين منصوبين بفعل واحد والثاني منهما أخص من الأول، وانفصال الضمير على خلاف الأصل.

ثم جاءت **الخاتمة** فيها أبرز ما ألم به البحث من النتائج.

هذا، وأسأل الله التوفيق والسداد وإقالة العثرات، والحمد لله أولا وآخرا

التمهيد

الضمائر وقواعدها نحويا

الضمير لغة هو: فعيل من (ضمر)، جاء في مقاييس اللغة لابن فارس: (الضاد والميم والراء أصلان صحيحان: أحدهما يدل على دقة فى الشيء، والآخر يدل على غيبة وتستر)[1]، وللمعنى اللغوي أثره في تسمية الضمير بذلك، (والنحاة يقولون: إنما سمي بذلك لكثرة استتاره، فإطلاقه على البارز توسع، أو لعدم صراحته كالأسماء المظهرة)[2]، ويسمى أيضا المضمر، والكوفيون يسمونه أيضا كناية ومكني[3].

واصطلاحا هو: (الموضوع لتعيين مسماه مشعرا بتكلمه أو خطابه أو غيبته)[4]، أو هو: (ما دل على متكلم كأنا أو مخاطب كأنت أو غائب كهو)[5]، أو هو: كما في بيت ابن مالك:

---

(١) – معجم مقاييس اللغة. (ضمر).

(٢) – معاني النحو. ٤٢/١. فاضل صالح السامرائي. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع – الأردن. ٢٠٠٠م.

(٣) – توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك. ٣٥٩/١. أبو محمد بدر الدين حسن بن قاسم بن عبد الله بن عليّ المرادي. تح. عبد الرحمن علي سليمان. دار الفكر العربي. ط١. ٢٠٠٨م.

(٤) – شرح التسهيل، تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد. ١٢٠/١. محمد بن عبد الله، ابن مالك الطائي الجياني، أبو عبد الله، جمال الدين . تح. عبد الرحمن السيد – محمد بدوي المختون. هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان. ط١. ١٩٩٠م.

(٥) – شرح قطر الندى وبل الصدى. ٩٤. أبو محمد، عبد الله، جمال الدين بن هشام الأنصاري. تح. محمد محيي الدين عبد الحميد. مطبعة السعادة – المكتبة التجارية الكبرى بمصر. ط١١. ١٩٦٣م.

فما لذي غيبة او حضور ... كـ (أنت، وهو) سم بالضمير[١]

والشراح يجعلون البيت من قبيل التعريف بالضمير، فابن عقيل يشرحه بقوله: (يشير إلى أن الضمير: ما دل على غيبة كهو أو حضور، وهو قسمان أحدهما: ضمير المخاطب نحو: أنت، والثاني: ضمير المتكلم نحو: أنا)[٢].

فأنواع الضمائر إذن: ضمائر حضور؛ وضمائر غيبة، أو هي ضمائر تكلم؛ وضمائر خطاب؛ وضمائر غيبة، ويندرج تحت كلٍّ أنواع، يقول د. عباس حسن: (والضمير بأنواعه الثلاثة لا يثنى، ولا يجمع، إنما يدل بذاته على المفرد، المذكر أو المؤنث، أو على المثنى بنوعيه المذكر والمؤنث معا، أو على الجمع المذكر، أو المؤنث)[٣].

أقسام الضمير: تنقسم الضمائر باعتبار ظهورها في الكلام وعدم ظهورها إلى ضمائر بارزة وضمائر مستترة.

الضمير المستتر هو: (ما ليس له صورة في اللفظ بل ينوى)[٤]، ومنه ما هو واجب الاستتار ومنه ما هو جائز الاستتار[٥].

---

(١) – الخلاصة في النحو، ألفية ابن مالك. ١١٤. أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن مالك الأندلسي. تح. عبد المحسن بن محمد القاسم. ط٤. ٢٠٢١م.

(٢) – شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك. لابن عقيل، عبد الله بن عبد الرحمن العقيلي الهمداني المصري. ومعه منحة الجليل بتحقيق شرح ابن عقيل. محمد محيي الدين عبد الحميد. ٨٨/١. دار التراث – القاهرة، دار مصر للطباعة، سعيد جودة السحار وشركاه. ط٢٠. ١٩٨٠م.

(٣) – النحو الوافي. ٢١٨/١. عباس حسن. دار المعارف. ط١٥. بدون.

(٤) – شرح كتاب الحدود في النحو. ١٤٤. عبد الله بن أحمد الفاكهي. تح. المتولي رمضان أحمد الدميري. مكتبة وهبة – القاهرة. ط٢. ١٩٩٣م.

(٥) – نبه ابن هشام إلى أن: (هذا التقسيم تقسيم ابن مالك وابن يعيش وغيرهما، وفيه نظر؛ إذ الاستتار في نحو: " زيد قام " واجب؛ فإنه لايقال : " قام هو "على الفاعلية، وأما" زيد قام أبوه "

الضمير البارز هو: (ما له صورة في اللفظ حقيقة أو حكما)[١]، وهو إما متصل وإما منفصل، (الضمير المتصل هو الذي لا يصح وقوعه أول الكلام ولا بعد (إلا) في الاختيار، والمنفصل بخلافه، أي: يصح وقوعه أول الكلام وبعد (إلا) في الاختيار)[٢].

مواضع اتصال الضمير وانفصاله: الأصل في الضمير الاتصال، لكن إن لم يتأت الضمير المتصل استعمل الضمير المنفصل، كما إذا وقع الضمير محصورا، أو مرفوعا بمصدر أضيف لمنصوبه؛ أو نصب بمصدر أضيف لمرفوعه الظاهر؛ أو وقع بعد واو المعية؛ أو بعد (أما)؛ أو بعد اللام الفارقة؛ أو كان عامله مضمرا؛ أو حرف نفي؛ أو كان عاملا معنويا بأن يكون مبتدأ فيرفع بالابتداء؛ أو أن يتأخر عامله عنه[٣].

ويجوز اتصال الضمير أو انفصاله إذا كان ثاني ضميرين منصوبين اتصلا بعاملهما؛ وكان العامل فعلا ناصبا لمفعولين أصلهما المبتدأ والخبر، نحو: (خلتنيه)؛ أو كان فعلا ناصبا لمفعولين ليس أصلهما المبتدأ والخبر، نحو: (الدرهم أعطيتكه)؛ أو إذا كان الضمير خبر (كان) أو إحدى أخواتها، نحو: (الصديق كنته)[٤].

→→→

أو" ما قام إلا هو "فتركيب آخر، والتحقيق أن يقال :ينقسم العامل إلى ما لا يرفع إلا الضمير المستتر كأقوم، وإلى ما يرفعه وغيره كقام). أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك لابن هشام الأنصاري. ومعه مصباح السالك فى أوضح المسالك لبركات هبود. ١٠٤/١. يوسف الشيخ محمد البقاعي. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت. بدون.

(١) – أضاف الشيخ محيي الدين عبد الحميد " أو" حكما ليدخل الضمير المحذوف من اللفظ جوازا. ينظر: منحة الجليل بتحقيق شرح ابن عقيل. ٩٥/١.

(٢) – توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك٣٥٩/١.

(٣) – ينظر: منحة الجليل. ١٠٠ وما بعدها.

(٤) – ينظر: أوضح المسالك. ١١٠/١ وما بعدها.

فإذا اجتمع ضميران منصوبان متصلان بالعامل وجب تقديم الأخص منهما[١]، وإذا انفصلا وأمن اللبس جاز تقديم أيهما، فإن اتحدت رتبة الضميرين وجب فصل أحدهما إلا إذا كانا غائبين واختلف لفظهما، نحو: (الزيدان الدرهم أعطيتهماه).

مفسر الضمير: حتى يؤدي الضمير معناه ووظائفه لا بد له من مفسر يعين المقصود منه، وضمير التكلم والخطاب يفسر بحضور من هو له[٢]، فالمقام قرينة على المقصود به، وإن كان ضمير غيبة فالأصل في مفسره أن يتقدمه لفظا ورتبة، ليفهم المقصود منه، وقد يتقدمه لفظا لا رتبة، نحو قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾، وقد يتقدمه رتبة لا لفظا، نحو قوله تعالى: ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾.[٣]

أما أن يتأخر مفسر الضمير عنه لفظا ورتبة فذلك لا يصح إلا في باب ضمير الشأن والقصة، مثل قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[٤]، وإذا كان الضمير مخبرا عنه بمفسره، مثل قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا ما هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾[٥]، وفي باب (نعم) على توجيه الإعراب، والضمير المجرور بـ(رب) المفسر بتمييزه نحو: (ربه رجلا)، والضمير في باب التنازع إذا عمل العامل الثاني في المتنازع فيه واحتاج العامل الأول لمرفوع نحو: (قاما وقعد أخواك)،

---

(١) – ضمير التكلم أخص من ضمير الخطاب، وضمير الخطاب أخص من ضمير الغيبة، ينظر: شرح ابن عقيل. ١٠٦ وما بعدها.

(٢) – ينظر شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب. ١٧٥. عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله ابن يوسف، أبو محمد، جمال الدين، ابن هشام. تح. عبد الغني الدقر. الشركة المتحدة للتوزيع – سوريا، بدون.

(٣) – طه.٦٧.

(٤) – الحج. ٤٦.

(٥) – الجاثية.٢٤.

والضمير الذي يبدل منه ما بعده نحو: (ضربته زيدا)، والضمير العائد على مفعول مؤخر إذا اتصل بالفاعل المقدم في الضرورة على ما سيأتي إن شاء الله.

وقد لا يأتي في اللفظ ما يفسر ضمير الغائب، وإنما يفسره المقصود منه بالسياق وقرائن الأحوال نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[1]، تنويها بأنه حاضر في القلوب.

والأصل أن يتفق الضمير مع مرجعه إفرادا وتثنية وجمعا؛ وتذكيرا وتأنيثا؛ ويجوز اختلافه معه لغرض يظهر في السياق أو المقام[2].

وإن تعدد مرجع الضمير فالأصل أنه يعود للأقرب؛ إلا إن كان الأقرب مضافا إليه فيعود للمضاف، إلا إذا كانت هناك قرينة تدل على أن المقصود بالضمير غير ذلك، كما أن الأصل أنه إذا تعددت الضمائر اتحد مرجعها منعا للتشتيت، إلا إذا دلت القرينة على خلاف ذلك، نحو قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا[3]﴾[4].

---

(١) – القدر.١.

(٢) – ينظر: تعليق الفرائد على تسهيل الفوائد. ٣٧/٢. محمد بدر الدين بن أبي بكر بن عمر الدماميني، تح. محمد بن عبد الرحمن بن محمد المفدى. ط١. ١٩٨٣م.

(٣) – الكهف. ٢٢.

(٤)– ينظر: الإتقان في علوم القرآن. ٣٣٧/٢ وما بعدها. عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي. تح. محمد أبو الفضل إبراهيم. الهيئة المصرية العامة للكتاب. ١٩٧٤م.

المبحث الأول

دلالات الضمائر وتوظيفها

اكتفى كثير من البلاغيين عند التعرض لدراسة الضمير ضمن بلاغة التعريف أن يجعلوا استعمال الضمير لأن المقام للتكلم أو الخطاب أو الغيبة[١] دون أن يتناولوا وجوه اقتضاء هذه المقامات للضمير واختيار طريق منها دون غيرها[٢] ونسق الكلام على ذلك.

وفي تعريف العلماء للضمير – على ما مر – حددوا مفهومه اعتمادا على دلالته على مقامات التكلم والخطاب والغيبة، ودلالته على معين بقيد الإشعار بالتكلم والخطاب والغيبة، ودلالته على الغيبة والحضور، وهم بذلك يعرفونه من منطلق وظائفه الأساسية كما استشعروها في الكلام، مع التركيز على الموقف نفسه غالبا، والأمر في حقيقته لا يقف عند هذه الدلالة في التوظيف البلاغي، وإنما يستتبعه أحوال ودلالات وأغراض.

فضمير التكلم يعبر عن الذات والحضور، وضمير الخطاب يعبر عن الآخر والحضور، وضمير الغيبة يعبر عن الآخر والغياب عن الفاعلية المباشرة في الحدث الكلامي، وهذا يعكس جوانب مهمة من رؤية المتكلم واعتباراته، ويشير إلى جوانب فكرية ونفسية تعكس موقع الذات من الآخر وبالعكس ومدى التفاعل بينهما وكيفيته، وتبين الإضاءات والظلال المعتمدة على أثر الحضور والغياب المباشر، وتتبع المواقف موقفا موقفا مما يصعب في مثل هذا المقام لكونها تشمل الحياة كلها، لكن في البحث محاولة للإشارة لما يؤسس عليه اختيار هذا أو ذاك مع التمثيل لبعضها.

---

(١) –ينظر: تلخيص المفتاح. ٥٧. للخطيب القزويني جلال الدين محمد بن عبد الرحمن. تع. ياسين الأيوبي . المكتبة العصرية. صيدا. بيروت. ط١. ٢٠٠٢م.

(٢) – في غير مبحث الالتفات طبعا.

فضمير التكلم دال على صاحب الكلمة وذاته، مبين عن موضعه وموقفه من الأحداث وغيرها من وجهة نظر صاحب الكلمة نفسه، بحيث يتحمل هو ما ينسبه لذاته، وما يسنده لها، وما يصفها به، وما يتحمله من مسؤولية عن مواقفه وقراراته، وهو وسيلة مباشرة للإعراب عن النفس وما بداخلها، والتعبير عما قام به المتكلم وما أنجزه، أو حتى ما لحقه من خيبات أو هزائم، وأثر ذلك عليه، فهو يمكِّن صاحبه من تقديم نفسه وأحواله، وماضيه وآماله... للمخاطب مباشرة ويمكِّنه من التقاط ذلك وما يستتبعه منه مباشرة، هذا بالإضافة إلى تعزيز قوة حضور المتكلم، وذاته، ورؤيته، وآرائه، وارتباطه بالأحداث والصفات، وغير ذلك.

وبناء على ذلك تتكشف اتجاهات المتكلم وميوله، كاستعظامه لنفسه حقيقة أو تخيلا، أو احتقاره لذاته وبحثه عنها أو عن تعويضها، وقد تظهر رغبته في فرض هيمنته وسيطرته على الحديث وما يحتويه، وذلك كله مما قد يشير لطبيعة الشخصية، وهذه الإشارات تتجلى دلالاتها حين ينظر إليها مضموما لها غيرها من الإشارات والدلالات الواردة في سياق النص وإطاره الكلي.

ففي شعر عنترة بن شداد يظهر الصراع النفسي القوي الذي عاشه بوضوح، وضمير المتكلم من أهم ما أبرز هذا الصراع، يقول عنترة[1]:

حِصاني كانَ دَلّالَ المَنايا فَخاضَ غُبارَها وَشَرى وَباعَ

وَسَيفي كانَ في الهَيجا طَبيبًا يُداوي رَأسَ مَن يَشكو الصُداعا

أَنا العَبدُ الَّذي خُبِّرتَ عَنهُ وَقَد عايَنتَني فَدَعِ السَماعا

(١) – شرح ديوان عنترة. ٩٠. الخطيب التبريزي. تق. مجيد طراد. دار الكتاب العربي. ط ١. ١٩٩٢م.

وَلَـو أَرسَـلتُ رُمحـي مَـع جَبـانٍ لَكـانَ بِهَيبَتـي يَلقـى السِـباعا

مَـلَأتُ الأَرضَ خَوفـاً مِـن حُسـامي وَخَصـمي لَـم يَجِـد فيهـا اتِّسـاعا

إِذا الأَبطـالُ فَـرَّت خَـوفَ بَأسـي تَـرى الأَقطـارَ باعًـا أَو ذِراعـا

فتجده تسمو به نفسه الأبية، وتدفعه نحو العلا والشرف، وهو واجد في همته وخلقه وكفاحه وإنجازاته ما يناسب هذا الشعور الاستحقاقي، وفي ذات الوقت ينازعه في ذلك نظرة المجتمع وقسوة التعايش مع المعاملة العنصرية، لذا يأتي ضمير التكلم بغزارة في الأبيات، وكأنه يثبت نفسه عظيمة في وجوه كل من عابوه أو طعنوا عليه بسبب نسبه، تجده ينسب لنفسه خير الأفعال والصفات والمزايا، يُرضي بها نفسه التواقة للمجد، ويعوضها ذلك الانتقاص الذي تعرضت له، ولا يكتفي بإظهار ذاته وفرض سلطتها وهيمنتها فحسب، بل أيضا ما ينتمي إليه من حيوان وجماد (حصاني – سيفي – رمحي – حسامي) يثبت له الفضل والتميز على سائر جنسه، ومع ذلك يجهر بإسناد العبودية لنفسه (أنا العبد) في تحد واضح يليق بعمق جرح روحه الحساسة التي طالما آلمتها وأوجعتها هذه الكلمة، تحد يليق بفارس لا يقبل أن تكون عنده نقطة ضعف يؤتى منها، فيصيح بها معلنا أن هذه هي ذاته وأصل حقيقته كما رأت بيئته، لكن هذا لن يوقف طموحه، أو يقلل من سطوته، ومن أبى فعليه أن يتحمل عواقب ذلك.

وبالرغم من قوة هذه الذات التي يظهرها عنترة؛ لكنها ذات منفردة، وأهدافه وآماله وإن كانت طموحات عالية؛ لكنها محدودة بوحدته، فتجد ضمير المتكلم مفردا يعبر عن هذه العزلة النفسية الناشئة من محنته، بخلاف ما تجده عند عمرو بن كلثوم مثلا حين يقول في معلقته:

أَلاَ لاَ يَجْهَلَنْ أَحَدٌ عَلَيْنَا فَنَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الجَاهِلِيْنَا

وَقَدْ عَلِمَ القَبَائِلُ مِنْ مَعَدٍّ إِذَا قُبَبٌ بِأَبطَحِهَا بُنِيْنَا

بِأَنَّا المُطْعِمُوْنَ إِذَا قَدَرْنَا وَأَنَّا المُهْلِكُوْنَ إِذَا ابْتُلِيْنَا

وَأَنَّا المَانِعُوْنَ لِمَا أَرَدْنَا وَأَنَّا النَّازِلُوْنَ بِحَيْثُ شِيْنَا

وَأَنَّا التَارِكُوْنَ إِذَا سَخِطْنَا وَأَنَّا الآخِذُوْنَ إِذَا رَضِيْنَا

ومنها أيضا:

مَلأْنَا البَرَّ حَتَّى ضَاقَ عَنَّا وَظَهرَ البَحْرِ نَمْلَؤُهُ سَفِيْنَا

إِذَا بَلَغَ الفِطَامَ لَنَا صَبِيٌّ تَخِرُّ لَهُ الجَبَابِرُ سَاجِدِيْنَا

فعمرو ابن كلثوم سيد ابن سيد، حكم قومه، وحمل مسؤولياتهم، وخضعوا له، وأقروا بسيادته، وحاربوا تحت رايته، وهو يرى أن ما يحققه من انتصارات وإنجازات للجميع الحق في الاستمتاع به، كما يشعر بقوة الذات الجمعية التي يتحدث عنها، وقدراتها التي تمكنها من السيطرة على المجتمع لا الأشخاص، والهيمنة على مظاهر الحياة لا بعض المعارك، حتى ليفيض به وبقومه البر والبحر، وتذل لصغارهم الجبابرة معلنة سيادتهم عليها، ومقام التكلم هنا يبوح بإحساس العزة الطاغية على الذات، ونظرة الاستعلاء التي تقوِّم الأشياء من حولها وتقرر مصائرها وفق ما يتراءى لها موافقا مصالحها أو أهواءها.

ومن استعمال ضمير التكلم طلبا لخصوصية أثره ما ورد في قصة رمزية لإبراهيم العرب بعنوان (الشجرة القديمة والبستاني)[١]، حيث جاء على لسان الشجرة لما أراد البستاني أن يقطعها:

في روضةِ الْأَزهارِ كانتْ شجرَة شاخَتْ فلا تثمرُ أدنى ثمرَة

فرامَ أنْ يَحْطِمَها الْبُستاني لكي تكونَ طُعْمةَ النِّيرانِ

فجاءَها صبيحةً بفاسِ أعدَّها لها بقلبٍ قاسي

قالتْ لهُ أنا أنا الْكُمثرى أنا التي بها حماكَ أثْرَى

أنا التي في زمنِ الشَّبابِ كانتْ عروسًا غضةَ الْإِهابِ

إنْ لم تكنْ لهرمي محترمَا ورمْتَ هذا الْمَوتَ لي مخترمَا

فاصبرْ فإني عن قريبٍ أعدمُ والضربُ في الميتِ قالوا يحرمُ

فقد مهد الشاعر بوصف الشجرة بأنها شاخت وصارت بلا نفع، وعندئذ يكون قطعها والاستفادة من أخشابها مما لا يحزن له أحد، بل لا يُبالَى به أصلا، لكن الشاعر أنطق هذه الشجرة مدافعة عن نفسها، فجاء ضمير التكلم المعبر عنها ثماني مرات، بارزا منفصلا (أنا) أربع مرات، وبارزا متصلا (ياء التكلم) ثلاث مرات، ومستترا مرة في جملة (أعدم)، فصارت شخصية لها اعتبارها، لها ماض تتذكره وتذكر به،

(١) . تحكي عن شجرة شاخت ولم تعد تثمر، فأراد البستاني قطعها واتخاذها حطبا، فأخذت تذكره بفضلها، وتستعطفه ليبقي عليها، كما دافع عنها كل من البلابل والنحل؛ إلى أن قبل البستاني أن يبقي عليها في مقابل أن يعطيه النحل العسل، ينظر: ديوان آداب العرب. ٤٦ وما بعدها. إبراهيم العرب. وزارة المعارف العمومية. مصر. ١٩١٣م.

ولها فضل على غيرها يؤثر على تشكيل حياته، ولها أفراحها وآلامها وحاضرها ومستقبلها، ولو اكتفى القاص بأن يعبر عنها بضمير الغائب لما تحولت من جماد بلا وعي إلى شخصية حية لها مشاعر وذكريات وانفعالات ومتطلبات، فضمير التكلم غير نظرة المتلقي لها وتفاعله معها وانفعاله بالأحداث واتجاهاته وردود فعله نحو الشخصية الأخرى (البستاني).

ويأتي ضمير التكلم في تسجيل الآراء والمواقف كما في الكتابات العلمية فيتحمل الكاتب أو الباحث مسؤولية كلامه، وقد يستعمل ضمير المتكلمين ليقرب المسافة بينه وبين القارئ، فكأنه يحرك زاوية رؤيته وينقله من مقاعد المتفرجين إلى ساحة العمل والمناقشة، مما يساعد على رفع درجة انتباهه وتفاعله مع المعلومة المقدمة عقليا وعاطفيا.

وضمير الخطاب يخلق الموقف الخطابي، ويساعد في خطاب الجمهور سواء أكان حاضرا بالفعل أو مستحضرا في الذهن والخيال، ويقرب الحديث من النفوس، ويبني فكرة الحوار والمناقشة ويعززها، ويبرز الخط الرئيسي في مجرى الرسالة الموجهة إلى صاحب موقف الخطاب، وبناء على سياقه وما يصاحبه يبين إلى حد كبير علاقة المتكلم به وموقفه منه، ويسلط الضوء عليه وعلى أفعاله ومواقفه وآرائه، ويجعله معقد تنفيذ الطلب من أمر ونهي.

ومن ذلك ما جاء في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم النحر من حجة الوداع أنه قال: (إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام. كحرمة يومكم هذا. في شهركم هذا. في بلدكم هذا. فليبلغ الشاهد الغائب)[1]، فهذا أساس مهم من أسس المجتمع الذي كان يبدأ في هذا الوقت، وبه تُعصم الأرواح والأعراض والملكيات،

(١) – صحيح مسلم. أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري. ٣/ ١٣٠٦. حديث رقم. ١٦٧٩. تح. محمد فؤاد عبد الباقي. مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه – القاهرة. ١٩٥٥م.

وبذلك يتحقق الأمن، فتصير البيئة آمنة تصلح لنمو الحياة وازدهار الحضارة، ولذا جعلها الرسول صلى الله عليه وسلم من وصاياه المهمة في هذا اليوم العظيم، وواجه من حوله بالخطاب، ليحملهم أمانة الأمر بطريق مباشر، ووصى من حضره وشهد وصيته هذه أن يبلغها عنه، لتصل من شخص لشخص ومن جيل إلى جيل، وكأنا بها نسمعها الآن تخاطبنا وتعلمنا أساس الأمن في المجتمع مرتبطا بالحل والحرمة ومراقبة الله تعالى قبل مراقبة البشر وقوانينهم.

واستعمال ضمير الخطاب يجعل شخص المخاطب في مواجهة المتكلم حقيقة أو مجازا، فيكون حاضرا ماثلا أمام المتكلم والمستمع، وبذلك يثبت له القرب على اختلاف درجاته من المتكلم؛ لأن الأصل توقع سماع المخاطب المتكلم، وذلك لا يتأتى في البعد الشاسع، والخطاب يستلزم أيضا إثبات العقل والشعور للمخاطب – حقيقة أو مجازا – ليتأتى خطابه؛ وذلك لأن الأصل في الخطاب أن يكون لمن له عقل وحس، وبذلك يكون له دوره في التصوير البلاغي وتحريك الخيال والتعبير عن المشاعر عند مخاطبة الجمادات أو الغائبين أو الذكريات.

ومن ذلك مخاطبة البهاء زهير لولده الذي ابتلي بفقده يافعا، حيث يقول[١]:

فيا مَن غابَ عَنّي وَهوَ روحي وَكَيفَ أُطيقُ مِن روحي انفِكاكا؟

حَبيبي كَيفَ حَتّى غِبتَ عَنّي؟ أَتَعلَمُ أَنَّ لي أَحَداً سِواكا؟

أَراكَ هَجَرتَني هَجرًا طَويلًا وَما عَوَّدتَني مِن قَبلُ ذاكا

عَهِدتُكَ لا تُطيقُ الصَبرَ عَنّي وَتَعصي في وَدادي مَن نَهاكا

(١) – ديوان بهاء الدين زهير. ٢٤٦ وما بعدها. أبو الفضل زهير بن محمد بن علي بن يحيى المهلبي. دار صادر. ١٩٦٤م.

فَكَيفَ تَغَيَّرَت تِلكَ السَجايا؟ وَمَن هَذا الَّذي عَنّي ثَناكا؟

فَلا وَاللَهِ ما حاوَلتَ عُذراً فَكُلُّ الناسِ يُعذَرُ ما خَلاكا

وَما فارَقتَني طَوعاً وَلَكِن دَهاكَ مِنَ المَنِيَّةِ ما دَهاكا

لَقَد حَكَمَت بِفُرقَتِنا اللَيالي وَلَم يَكُ عَن رِضايَ وَلا رِضاكا

فهذا والد فقد ابنه في شبابه، فأخذت المصيبة عقله، حتى إنه لا يزال يراه حوله، ويخاطبه، هذا أب لم يستوعب بعد موت حبيبه وغيابه عنه، فهو وإن كان يلومه في بعاده ويتحدث عن فرقته ومنيته فإنه لم يعمل بذلك واقعيا، فما زال مستحضرا في عقله ووجدانه، ما زالت مشاعره وعواطفه تناجيه وتستجدي وصله، وهو في تخبطه هذا تارة يعاتبه ويرفض أن يقبل منه عذرا ولو كان سيقبل عذر الناس كلهم، وتارة يقر له بأن فرقته له لم تكن طوعا ولا اختيارا، وهو في ذلك كله لا يترك خطابه ولا يتحول عنه بوجهه، وإنما يتمسك به حاضرا يناجيه ويشكو له لوعته وألمه، وهذا في ذاته مما يعتصر القلوب اعتصارا، فقد نقل ألمه وحزنه للسامع، وصور جانبا مهما من جوانب النفس الإنسانية إذا فقدت من تحبه وتتعلق به.

كذلك يساعد افتتاح القصائد بالخطاب على استفتاح القلوب والأسماع، فالمواجهة بالخطاب تقرب المسافة بين القائل والمتلقي، وكذلك الاختتام بالخطاب – خاصة في العظات واسترفاد العطاء – يقرب المسافة ويجعل المتكلم كأنه لم يقطع صلته بالمخاطب حتى وإن كان قد أنهى حديثه، ومنه قصيدة المتنبي التي مطلعها[1]:

اليَومَ عَهدُكُمُ فَأَينَ المَوعِدُ؟ هَيهاتَ لَيسَ لِيَومِ عَهدِكُمُ غَدُ

(١) – ديوان المتنبي. ٤٧. دار بيروت للطباعة والنشر. بيروت. ١٩٨٣م.

المَــوتُ أَقــرَبُ مِخلَبــاً مِــن بَيــنِكُم وَالعَــيشُ أَبعَــدُ مِــنكُمُ لا تَبعُــدوا

وآخرها يقول مادحا(١):

يَفنــى الكَــلامُ وَلا يُحــيطُ بِوَصــفِكُم أَيُحــيطُ مــا يَفنــى بِمــا لا يَنفَــدُ؟

والأصل في ضمائر الخطاب أن تكون لمعين؛ يحدد بحضور المخاطب وتوجيه الكلام له، ويكون ذلك هو القرينة الدالة عليه، لكن العرب استعملوا هذا الضمير لخطاب غير المعين، بحيث يعمم به الخطاب لكل من تتأتى مخاطبته به على سبيل البدل لا التناول دفعة، وإنما قال البلاغيون بذلك حتى لا يكون كالنكرات في العموم، وقد جعل ابن يعقوب المغربي هذا من المجاز، ووضع بهاء الدين السبكي له عدة احتمالات، كأن يكون هذا العموم عموم صلاحية أو عموم شمول، أو أن يكون ذلك مجازا، أو أن يكون جمع بين الحقيقة والمجاز، أو أنه يدل على كل فرد بالمطابقة كدلالة العلم على أفراده؛ والمشترك على معانيه؛ ولا يلزم عليه أن يكون مدلوله جمعا؛ بل ينصب على كل فرد انصبابا واحدا؛ وهذا هو ما اختاره، وذكر الدسوقي أن هناك من عده من إخراج الكلام على غير مقتضى الظاهر، ولكنه رد هذا القول، وعده من المجاز لاستعمال اللفظ في غير ما وضع له(٢).

واستعمال ضمير المخاطب على هذا النحو يكون في الأمور المهمة حقيقة أو ادعاء، وذلك لأن ما يُشعِر به من العموم يدل على أن الأمر الذي ورد فيه له حظ

---

(١) – ديوان المتنبي. ٥٠.

(٢) – ينظر: شروح التلخيص ٢٨٩/١ وما بعدها. وهي جامعة لمختصر العلامة سعد الدين التفتازاني على تلخيص المفتاح للخطيب القزويني، ومواهب الفتاح بشرح تلخيص المفتاح لابن يعقوب المغربي، وعروس الأفراح شرح تلخيص المفتاح لبهاء الدين السبكي، والإيضاح للخطيب القزويني، وحاشية الدسوقي، دار الهادي، بيروت – لبنان، ط٤، ١٩٩٢م.

من الذيوع أو ينبغي أن يكون له هذا الحظ، وهو أسلوب لافت للانتباه إذ يتلقى السامع الكلام وكأنه له هو، وهذا مما يقرب المسافة النفسية والفكرية بينه وبين المتكلم، كما أنه يساعد على (المبالغة في تأدية المقصود، كأنك أحضرت كل واحد ممن يصلح أن يخاطب وخاطبته بذلك)[1]، ومنه قول الحسن البصري: (وإنك ناظر إلى عملك يوزن خيره وشره، فلا تحقرنَّ شيئا من الخير وإن صغر؛ فإنك إذا رأيته سرك مكانه، ولا تحقرنَّ شيئا من الشر وإن صغر؛ فإنك إذا رأيته ساءك مكانه)[2]، ومنه أيضا خطاب الكاتب للقارئ المفترض، وخطاب المذيع لجمهوره المتوقع.

وضمير الغيبة يتيح للمتكلم الحديث عن الآخر من منظور خارجي؛ يعينه على تصويره كما يراه هو، كما لا يخفى دور هذا الضمير في القص والرواية؛ إذ يعطي انطباعا بشيء من الموضوعية والحيادية، ويفصل بين الراوي والشخصيات، ويعكس رؤية الشخصيات للأحداث وللشخصيات الأخرى في العمل.

وضمير الغيبة لا يعني الغياب الكلي فالأصل فيه أن يكون لغير المتكلم والمخاطب[3]، فلو كان في نفس المجلس شخص يتحدث أمامه شخصان آخران فإنهما يذكرانه بضمير الغيبة لعدم مشاركته في الحديث، وفي نفس الوقت ينطبق ضمير الغيبة على من ليس في مجلس التكلم أصلا، أو في بلد آخر، أو حتى في زمن آخر، فالغياب الذي يدل عليه هذا الضمير متفاوت، فقد يكون مع قرب، وقد يكون مع بعد، وهذا يعطيه مساحة دلالية أوسع من ضمائر التكلم والخطاب التي ترتبط بالحضور، كما يجعل له نصيبا من الإبهام، والأصل أن يسبق ضمير الغيبة بما

---

(١) . حاشية المير سيد شريف على المطول. ٧١ .

(٢) – جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة. أحمد زكي صفوت. المكتبة العلمية. بيروت – لبنان. بدون.

(٣) – ينظر: شرح الحدود في النحو. ١٤٠ وما بعدها.

يفسره ليزيل هذا الإبهام، لذا فلا بد له من تقدم ما يعود عليه ليتبين معناه، ولا يخالف ذلك إلا في مواضع محددة أشير لها في التمهيد.

وهذا التفاوت في درجات الغياب يتيح للمتكلم أيضا أبعادا وزوايا مختلفة في تناوله لصاحب الضمير من خلاله، ويعطي للسامع انطباعات متنوعة عنه وعن علاقته بالمتكلم وعناصر النص الأخرى بحسب السياق، وبذلك قد تظهر حقيقة رؤية المتكلم ومشاعره نحو صاحب الضمير، فقد يستعين المتكلم بالتغييب تعظيما للمتحدث عنه، وكأنه يجل مقامه عن أن يكون في متناول الحوار المباشر، مثل ما يفعله بعض الطلبة مع مشايخهم على سبيل التهذيب بأن يقول: (شيخي يأمر وأنا أطيع)، وقد يلجأ له بغضا ونفورا؛ أو تشوقا، أو خجلا... إلى غير ذلك، ومن استعمال ضمير الغيبة بما يكشف عن نواح نفسية وتأثيرات اجتماعية ما جاء في قصة (كما يليق بغريب) للأديبة المعاصرة هبة عثمان:

(تقاوم أعراض المنفى الاختياري التي أقضت مضجعها أربع سنوات وقبلها سنوات طويلة من العزل الإجباري.

مازال نفس السؤال يتردد برأسها كلما فتحت عيونها بعد ما لا يشبه النوم ولا يتجاوز اليقظة.. ما زالت تردد نفس الاستفهام منذ وعت على هذه الدنيا: بالله ماذا أفعل هنا ؟!!

على أرضية الغرفة الخشبية تضع ساقيها المتعبتين وقدميها المتورمتين اللتين لم يتسع لهما وطن بأكمله وكفتا منذ وقت عن متابعة الخطوات إلا جبرا.

تعاود التنقل بين مقار العمل كالمنومة. يصلح تعبير السائرين نياما عنوانا لحياتها.)

ثم تقول:

(في قارة أخرى بعيدة عن تلك المدينة التي تهترئ فيها الأحلام تستسلم لأفكارها داخل تاكسي يقوده شاب صامت يستمع إلى إذاعة خافتة.

يبدو اللحن الخافت مألوفا لكنها كانت مستغرقة في لأم صدوع ذلك الرأس العنيد.

كان رأسها عنيدا حتى في ألمه، قاسيا لا يرحم، وفجأة يثقل الهواء ويتصاعد خفقان مجنون وتتلاشى الدنيا من حولها رويدا رويدا. آه.. لا !! أفي تلك المدينة الكبيرة التي تتحدث لغة أخرى تماما؟ آه.. لا يمكن .. ليس هنا!!!

تنصت أكثر.. نعم ما سمعته صحيح: أي حاجة تيجي من ريحة الحبايب.

ريحة الحبايب نظريتها التي اكتشفتها طفلة حين كانت تقول إن لكل شعور رائحة ما؛ فرائحة الأمان هي رائحة الكستناء أو أبو فروة؛ ولكل من نحب رائحة لا تخطئها الروح مهما بعدنا..)

ثم تقول:

(يتتابع دمع أكثر مرارة..

أي حاجة؟! صدق أي شيء.

"أسأل من بعيد يسأل عليا!" من بعيد عنوان المرحلة لأن" من قريب "لم يعد ممكنا ولم يكن أصلا.

تنزل لتكمل بكاءها على الأرصفة ، تتساقط قطرات الدمع على أسفلت الطريق لا على صدر من نحب، تماما كما يليق بغريب).

والكاتبة هنا تتحدث عن نفسها، تصف آلامها هي، آلام بدنية وآلام نفسية، للوهلة الأولى تراها كأنها شكوى من ألم القدمين أو من ألم الاغتراب، لكن الحقيقة أن هذا ليس ألما محددا، إنما هو ألم متراكم متراكب، ألم من يبحث عمن يتفهم حاله ويربت عليه في هدوء ويتلقى دمعه على صدره فلا يجد، وما يرفع درجة هذا النوع

من الألم أن المطلوب – مع أهميته – غير مكلف، ومع ذلك لا يوجد، لذا استعملت الكاتبة ضمير الغيبة لتجعل لهذه النفس المتألمة من يتكلم عنها، ويعبر عن أوجاعها ويبوح بها، لتصنع لنفسها من يتعاطف معها ويحنو على جراحها ويربت عليها بلطف، فصارت هي في نفسها لم تشك من ضعفها أو ألمها، وتلك التي تتحدث عنها هي أيضا لم تشك من ضعف خاص بها، وذلك لأنا اعتدنا رفض الاعتراف بالشكوى، فهي هنا لم تنكر ضعفها – بل وصفته بدقة –، وإنما أنكرت الشكوى.

ومما يتصل بما يعود عليه الضمير فن الاستخدام، وهو فن بديعي عرفه الخطيب القزويني بقوله: (هو أن يراد بلفظ له معنيان: أحدهما، ثم يراد بضميره: الآخر، أو يراد بأحد ضميريه: أحدهما، ثم يراد بالضمير الآخر: الآخر)[1]، يقصد أن يكون للفظ معنيان أو أكثر، فيستخدم المتكلم كلا المعنيين في كلامه، فإما أن يراد باللفظ معنى من المعنيين، ثم يأتي بضمير يعود على هذا اللفظ لكن مقصودا به المعنى الثاني، وقد مثلوا له بقول الشاعر:

إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا

فلفظ السماء أريد به الغيث، والضمير في (رعيناه) يعود على السماء لكن بمعنى النبات الذي يخرج بسبب المطر.

وإما أن يكون للفظ معنيان، ويعود عليه ضميران، كل ضمير منهما مقصود به أحد المعنيين، ومثلوا له بقول الشاعر:

فسقى الغضا والساكنيه وإن هم شبوه بين جوانحي وضلوعي

(١) – تلخيص المفتاح. ١٨١.

فكلمة (الغضا) قد تكون اسما لمكان والضمير في (الساكنيه) عاد عليها بهذا المعنى، وقد تكون بمعنى شجر كانوا يستعملون خشبه في إشعال النار وجمره يبقى طويلا، والضمير في (شبوه) يعود عليه بهذا المعنى.

فهذا الفن ليس كفن التورية الذي يعتمد على مجيء الكلمة مرة واحدة مع تداعي المعاني لكن المقام يطلب معنى واحدا يناسبه، ففي فن الاستخدام يستعمل أكثر من معنى ويستفاد بهذا التعدد، ولا هو كفن الجناس الذي يعتمد على أن الصورة صورة الإعادة مع تغيير الإفادة، لكنه فن يعتمد على الإيحاء بالتكرار والإيحاء بالربط دون نص صريح، فإذا فتش المتلقي عن التكرار وجده مختلفا ليس في المعنى فقط كما في الجناس ولكن حتى اللفظ لم يكن بين يديه حقيقة، وإنما ضمير توهمه عائدا على اللفظ، فهذه المراوغة الأسلوبية مما يحتاج لدقة وفهم من القائل في استعمالها، كما يحتاج لفطنة المخاطب لأصل المعاني ومساراتها مع الألفاظ، وإلا ضاع منه الخيط الرابط في النص.

واحتياج الضمير لما يفسره يجعل له وظيفة مهمة وهي دوره الرئيسي في تماسك النص وتشكيل الروابط والعلاقات بين أجزائه داخليا؛ وتمديد علاقات النص بسياقه خارجيا، فضمير المتكلم يربط بين صاحبه وما يدور في النص ويربط ما في النص بدواخل نفس المتكلم، وضمير المخاطب كما يربط بين النص وصاحبه يربط كذلك بين المتكلم والمخاطب، وضمير الغيبة يحتاج ما يعود عليه ويفسره وغالبا ما يكون داخل النص فعند ذلك يشكل محورا لمجموعة من العناصر تترابط مع بعضها بواسطته، وقد يكون ما يعود عليه ضمير الغائب خارج النص فعندئذ يربط داخل النص بخارجه.

وتكرار إيقاع النسبة الكلامية لنفس الضمير وصاحبه يوجد خيطا رابطا يجمع أجزاء النص في نسيج متلاحم، ومن ذلك قول لسان الدين ابن الخطيب في محنته التي قتل فيها[١]:

بعُـــدْنا وإنْ جاورَتْنـــا البيـــوت وجئنـــا بـــوعظٍ ونحـــن نمـــوت

وكنـــا عظامًـــا فصـــرْنا عظامًـــا وكنـــا نقـــوتُ فهـــا نحـــن قـــوت

وكنـــا شـــموسَ ســـماءِ العـــلا غـــربْنَ فناحَـــتْ عليهـــا السّـــموت

فضمير التكلم هنا هو الخيط الرئيس الذي ينظم ما جاء في الأبيات، ويبرز من خلاله دلالات الطباق، فيظهر بعد البون بين ما كان عليه وما صار إليه، وهو الأساس الذي تُظهِر به المقارنة بين الحالين حجم المأساة التي كان يعاني ويلاتها.

وقد لا يأتي مع الضمير ما يفسره اعتمادا على أنه معروف في هذا المقام حقيقة أو ادعاء مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[٢].

ومما يتصل بأصل دلالات الضمائر وتوظيفها دلالات الضمائر على الإفراد والتثنية والجمع، والتذكير والتأنيث، والأصل في ذلك أن الضمير يتفق مع ما يفسره في هذه الجهات، لكن هناك مواضع يجوز في الضمير أكثر من وجه، فمثلا جمع التكسير الذي لمذكر عاقل يجوز أن يعود عليه الضمير المذكر جمعا فيقال: (الرجال حضروا)، ويجوز أن يعود عليه ضمير الغائبة المفردة، فيقال (الرجال جاءت)، وجمع المؤنث يجوز في ضميره الإفراد والجمع، لكن يترجح الجمع مع جمع العاقلات، ويترجح الإفراد

---

(١) – إنباء الأمراء بأنباء الوزراء. ٦٨ وما بعدها. شمس الدين محمد بن علي بن خمارويه بن طولون الدمشقي الصالحي. تح. مهنّا حمد المهنّا. دار البشائر الاسلامية. بيروت .ط ١ .١٩٩٨م.

(٢) – القدر.١.

مع غيره، وأسماء الأجناس يجوز فيها التذكير حملا على الجنس ويجوز فيه التأنيث حملا على الجماعة[1].

ويترتب على ذلك أن اختيار إفراد الضمير أو تثنيته أو جمعه، واختيار تذكيره أو تأنيثه يكون لمعنى ومقصد، والمعاني في ذلك كثيرة لا تحصى، إذ تختلف باختلاف المقامات والسياقات وأغراض الكلام، لكن د.محمود توفيق رحمه الله كان كثيرا ما يكرر في ذلك ما يشبه القاعدة، حيث وجه النظر إلى دلالات ما يأتي في كل موضع والبحث عما يتفق منه مع السياق، فالتذكير قد يدل على قوة في الفعل أو الأثر، والتأنيث قد يشير إلى الرحمة أو اللين، والإفراد قد يدل على الوحدة أو القلة أو الجنس نفسه، والجمع قد يوحي بالكثرة أو التكرار أو القوة، وهكذا.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ ۖ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[2]، الضمير في (فأبين – فأشفقن) يعود على السماوات والأرض، وهذه غير عاقلة فكان الأرجح أن يكون الضمير العائد عليها للغائبة المفردة، لكن استعمل معها ضمير جمع المؤنث؛ لأن الحديث عن عرض أمانة العبادة وإعمار الكون يناسبه أن يعامل غير العاقل معاملة العاقل.

ومما حمل فيه على المعنى المؤنث لا اللفظ المذكر قوله تعالى: (الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)[3]، وذلك لأن المراد الجنة كلها، وفرق بين أن يكون الترغيب بالجزء؛ وأن يكون الترغيب بالكل، فهذا أقوى في الحث على الأعمال الصالحة.

---

(١) –ينظر: تعليق الفرائد على تسهيل الفرائد. ٢/ ٣٩ وما بعدها.

(٢) – الأحزاب. ٧٢.

(٣) – المؤمنون. ١١.

وبذلك يظهر أن كل ما يدل عليه الضمير يكون له وظائفه ودلالاته في الكلام والتعبير عن المتكلم والتأثير في السامع، وأن الأمر في دلالات الضمائر لا يقف عند حد ما يستوجب من تكلم أو خطاب أو غيبة، وإنما يكون لاتخاذ أحد هذه المقامات منطلقا للكلام؛ دوافعه ودلالته وتوظيفه، وكذلك كل ما يدل عليه الضمير من إفراد أو تثنية أو جمع، وتذكير أو تأنيث.

المبحث الثاني: الالتفات

لغة: أصله من (لفَتَ وجهَه عن القوم : صَرَفَه، وتَلَفَّتَ إلى الشيء والْتَفَتَ إليه: صَرَفَ وجْهَه إليه)[1].

والالتفات في اصطلاح جمهور البلاغيين[2]: (هو التعبير عن معنى بطريق من الطرق الثلاثة التكلم والخطاب والغيبة، وذلك بعد التعبير عن المعنى بطريق آخر من هذه الطرق)[3]

بناء على ما أشير إليه من مقتضيات ومقامات لاستعمال ضمائر التكلم والخطاب والغيبة وأثر تسليط الضوء على مقام منها بعينه؛ يمكن تفهم بنية أسلوب الالتفات، ووجه الاحتياج إليه في الكلام؛ ووجوه بلاغته وتأثيره، فالالتفات يعتبر من المراوغات الأسلوبية المؤثرة في الكلام والمتلقي، حيث يجعل المتلقي يتمثل الجوانب المتنوعة في الكلام، فهو يلتفت لكل جانب يظهر له مع تغيير الضمير، ويتفقد ما يلوح له منه، فهذا متكلم صاحب قول صار مخاطبا متلقيا للقول، وذلك غائب لم يكن في دائرة الكلام صار حاضرا وأصبح جزءا من الحدث الكلامي، وهكذا، وهذا مناسب لمعنى صرف الوجه الذي في الأصل الدلالي للكلمة.

والظاهر عندي أن جهة التغاير بين التكلم والخطاب والغيبة في نفسها كانت هي محط الاهتمام في التأصيل لهذا الفن؛ فقد ذكر د. حسن طبل أن ابن الأثير جعل من

---

(١) – لسان العرب. (لفت).

(٢) – قبل تقعيد القواعد وتحديد المصطلحات استعمل مصطلح (الالتفات) عند العلماء للدلالة على الانتقال من أسلوب لأسلوب، أو للدلالة على الانتقال من معنى لمعنى. وقد ذكر في ذلك د. حسن طبل تفصيلا في كتابه الالتفات في البلاغة القرآنية. ١٢ وما بعدها. حسن طبل. دار الفكر العربي. ١٩٩٨م.

(٣) – تلخيص المفتاح في المعاني والبيان والبديع . ٧١.

الالتفات اختلاف الضمير مع مرجعه عددا؛ كأن يكون جمعا ومرجعه مثنى؛ وتبعه في ذلك الزركشي[١]، ود.حسن طبل يرى أن هذا لم يكتب له الذيوع وإن كان صحيحا عنده، وأرى أن هذا الرأي لم يكتب له الذيوع لأنه مخالف لرؤيتهم، إذ لم ينظروا إلى مطلق العدول في طريقة استعمال الضمائر، وإنما أرادوا التنويه بما للانتقال بين مقامات التكلم والخطاب والغيبة من وظائف ودلالات متميزة، فخصصوا لها هذا المصطلح لتكون بذاتها محل دراسة، ففي الالتفات بين هذه الجهات يلحظ حركية الانتقال من مقام إلى مقام، مما يساعد على عرض المعلومة والإلمام بها من زوايا متنوعة، ويعين على تحقيق رؤية أوضح للمعنى وإحساس أقوى بما يصاحبه من تأثيرات فكرية ونفسية.

والفائدة العامة للالتفات كما ذكرها الزمخشري وتبعه بعد ذلك أغلب البلاغيين هي تطرية نشاط السامع وإيقاظه للإصغاء إلى الكلام[٢]، وابن الأثير نعى عليه هذا التوجيه لفائدة الالتفات؛ لأنه ظن أن الزمخشري يريد بتطرية السامع أن ينفي عنه الملل الذي يكون بسبب وحدة الأسلوب في الكلام، كما ظن أن الزمخشري رأى تطرية النشاط في قصدية تغيير الأسلوب[٣]، وأظن أن الزمخشري لم يرد الجانب الإمتاعي فقط بذلك التوجيه لفائدة الالتفات، وإنما أراد أن تطرية السامع وإيقاظه للإصغاء

---

(١) – ينظر: الالتفات في البلاغة القرآنية . ٢٣ وما بعدها.

(٢) – ينظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. ١٤/١. محمود بن عمر بن أحمد الزمخشري. تح. عادل أحمد عبد الموجود وآخرين. مكتبة العبيكان – الرياض. ط١. ١٩٩٨م.

(٣) – ينظر: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر. ١٣٦/٢. ضياء الدين بن الأثير نصر الله بن محمد. تح. أحمد الحوفي – بدوي طبانة. دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع. القاهرة. بدون.

تكون بسبب ما له من أثر في تحريك الفكر وتعدد جهات النظر إلى المعنى وتنوع الشعور به.

فالعدول بالتغيير بين مقامات التكلم والخطاب والغيبة قد يلمح منه تشكيل وجود ثان يشارك الوجود الأول ويتكامل معه في التعبير وإحداث التأثير المطلوب في المتلقي، وقد يساعد على تجسيد صراع أو أزمة يمر بها المتكلم أو يحاصِر بها المتلقي، وقد يشكل صراعا بين الحضور والغيبة أو بين الذات والآخر، أو يمثل اتحادا بين هذا وذاك، أو يجسد التغاير والاختلاف والتعدد في الرؤية وما يترتب عليها من آراء ومواقف، كما أن فيه مفاجأة المتلقي ومباغتته بما لم يتوقعه، إلى غير ذلك من النكات والأسرار البلاغية التي تختلف باختلاف السياقات، لكن يظهر في كل ذلك أن أسلوب الالتفات يأتي فيما له أهمية فكرية أو نفسية ولو في تصور المتحدث فقط.

وبهذا يكون ما يعتبره جمهور البلاغيين من الالتفات ينبغي أن يتغير فيه طريق التعبير بين التكلم والخطاب والغيبة[1]، وأن يكون على خلاف الظاهر، وأن يكون المعبر عنه واحدا، وأن يكون في كلام واحد، وما فقد شرطا من هذه الشروط لا يعد من الالتفات عندهم، فذلك لا يتعلق بصحة الكلام، وإنما يتعلق بصحة انطباق المصطلح على الأسلوب[2].

وللالتفات عند الجمهور ست صور، هي:

- **الالتفات من التكلم إلى الخطاب**، ومنه ما جاء في سورة (يس) على لسان مؤمن القرية وهو يعظ قومه: ﴿ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[3]،

---

(١) – يعتبر الاسم الظاهر من طريق الغيبة.

(٢) – ينظر علم البديع عند الشيخ محمد محمد أبو موسى. ٣٦٧. كتبه وعلق حواشيه. محمود توفيق محمد سعد. مكتبة وهبة. ط١. ٢٠١٩م.

(٣) – يس.٢٢.

حيث بدأ الكلام عن نفسه مستفهما عن عبادة الله سبحانه وتعالى الذي خلقه وسواه، فكيف لا يذعن له بالعبادة؟، ولم يوجه لهم الخطاب مباشرة؛ وإنما جاء بضمير التكلم مستعينا بأثر الاستفهام في تحريك الأذهان؛ وأثر خطاب نفسه في التعريض بحالهم من الكفر والجحود، فلما توقع أنهم قاسوا حالهم على حاله تحول إلى الخطاب وكأنه يحذر نفسه مغبة عدم التسليم بعبادة الله والإخلاص فيها، فذكرها الرجوع إلى الله وموقفها بين يديه، وجمع الضمير في (ترجعون) ليشعرهم بأنهم دخلوا تبعا في الخطاب، وينتقل من التعريض إلى التصريح، وهذا من بليغ أساليب الدعوة إلى الله عز وجل، وهذا التوجيه على أساس أن الضمير في (ترجعون) يقصد به نفس ما يقصده بالضمير في (لي – أعبد)، وإلا فلا التفات في الآية.

– **الالتفات من التكلم إلى الغيبة**، ومنه قوله تعالى: ﴿ حم (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ (٣) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (٤) أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٥) رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦)﴾[١]، يرى د. محمد أبو موسى أن الانتقال من التكلم إلى الغيبة هيأ الكلام لذكر الرسول صلى الله عليه وسلم، وأن ذكر الرحمة ناسبها ذكر الرب لما فيه من معنى التربية والرفق والعناية[٢].

– **الالتفات من الخطاب إلى التكلم**، ومنه ما جاء في قصيدة البهاء زهير التي رثى بها ولده، فقد بدأها بقوله:

نَهاكَ عَنِ الغَوايَةَ ما نَهاكا وَذُقتَ مِنَ الصَبابَةِ ما كَفاكا

وَطالَ سُراكَ في لَيلِ التَصابي وَقَد أَصبَحتَ لَم تَحمَد سُراكا

(١) – الدخان. ١– ٦.

(٢) – خصائص التراكيب. ٢٥٢.

فَلا تَجزَع لِحادِثَةِ اللَيالي وَقُل لي إِن جَزِعتَ فَما عَساكا؟

وَكَيفَ تَلومُ حادِثَةً وَفيها تَبَيَّنَ مَن أَحَبَّكَ أَو قَلاكا؟

بِروحي مَن تَذوبُ عَلَيهِ روحي وَذُق يا قَلبُ ما صَنَعَت يَداكا

بدأ بخطاب نفسه لائما لها على انشغالها في لهوها حتى ضاع وقته مع ولده، وفقده، ثم أتبع ذلك بخطاب فيه مواساة يسلي بها نفسه عما نزل به ويحاول أن يجد في مصيبته شيئا من النفع بأن هذه البلوى كانت سببا في معرفة الحبيب من غيره، وتكشف عدم صدق المحبة في مثل هذه المحن هو بنفسه محنة أخرى، وهذا يفسر خطابه لنفسه، وكأنه يؤنسها ويزيل وحشتها بعد أن فقد أنيسه وحبيبه ولم يجد له عوضا، ولذا فإنه عندما يبدأ في ذكر ولده يعود إلى ضمير التكلم في التعبير عن نفسه، وكأنما كفاه ذكره وأغناه أنسه عن الاستئناس بغيره، حتى لو كان نفسه، أو كأنه لا يعود لنفسه إلا في وجود حبيبه ولو ذكرا فقط.

- **الالتفات من الخطاب إلى الغيبة**، ومنه قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾[1]، ويرى الشيخ محمد أبو موسى أن ضمير الخطاب في البداية دل على أنهم كانوا في مقام الشهود، فلما بعدوا بفعل الريح صاروا في مقام الغيبة[2]، فالشيخ - زاده الله علما وفضلا - يشير إلى أثر الانتقال من الخطاب إلى الغيبة على تمثيل المشهد للعقول بما فيه من انتقال مكاني؛ وحركة حسية؛ وتغير وتبدل للأحوال، فهؤلاء كانوا أمامنا مخاطبين، ثم

(١) - يونس. ٢٢.

(٢) - خصائص التراكيب.٢٥٥.

جاءتهم ريح طيبة فرحوا بها وجرت بسفينتهم، فلما أبعدوا في البحر؛ وغاب عنهم العون؛ وغابوا عن العيون؛ وانقطع ما بينهم وبين الخلق من اتصال، عندئذ جاءتهم ريح عاصف، واضطرب الموج من كل جهة من حولهم حتى صار كأنه يأتيهم قصدا، فلما أيقنوا هلاكهم لم يجدوا غير باب الله يقفون أمامه، ولم يجدوا سواه يطلبون منه.

- **الالتفات من الغيبة إلى التكلم**، ومنه ما جاء في قصة (كما يليق بغريب) التي مر ذكرها (تقاوم أعراض المنفى الاختياري التي أقضت مضجعها أربع سنوات وقبلها سنوات طويلة من العزل الإجباري

مازال نفس السؤال يتردد برأسها كلما فتحت عيونها بعد ما لا يشبه النوم ولا يتجاوز اليقظة.. ما زالت تردد نفس الاستفهام منذ وعت على هذه الدنيا: بالله ماذا أفعل هنا ؟!)، فهذا السؤال فقط من بداية القصة إلى نهايتها هو ما ورد فيه استعمال ضمير التكلم، فهذه الصيحة هي مشكلتها، هي الفكرة التي تؤرقها، هذه الفكرة هي التي تجمع بين تلك الشخصية المتألمة وتلك التي جاءت بها لتتحدث عنها وتربت على أوجاعها، فعند هذه النقطة فقط صارتا ذاتا واحدة، لذا عبرت عن هذه الفكرة تحديدا بضمير التكلم لتبدو ملتبسة بذاتها صراحة.

- **الالتفات من الغيبة إلى الخطاب**، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا * لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾[1]، حكى سبحانه وتعالى مقالتهم وفريتهم العظيمة على ملك الملوك، ثم وجه لهم الخطاب مباشرة بجرمهم وإثمهم، وفي ذلك تعظيم لما اقترفوه حتى استحقوا مثل هذا الخطاب، وتحذيرا من مثل هذا الموقف أن يضع غيرهم نفسه فيه.

(١) - مريم. ٨٨ - ٨٩.

المبحث الثالث

وضع المضمر موضع المظهر

الأصل في ضمير الغائب أن يذكر قبله ما يعود عليه ليفهم المقصود منه، وقد مر في التمهيد أن النحاة استثنوا من ذلك حالات يفسر فيها الضمير بمتأخر عنه، ومن هذه الحالات:

باب (نعم)

ولهذا الأسلوب خصوصيته في باب المدح والذم، وأساسه[1] الإبهام الذي يشكل المبالغة، فقولنا (نعم الرجل زيد) المدح فيه عام، فليس مدحا بصفة معينة، فكأنما الممدوح قد استكمل صفات المدح وصار فيها مثالا فمُدِح بها جملة، و(ال) في (الرجل) إما للجنس للمبالغة في إثبات المدح له، وإما للعهد الخارجي فتكون للإشارة إلى معهود ذهنا في ضمن فرد ما مبهم الوجود؛ وكأن الممدوح هو ذلك المثال المستجمع لصفات هذا الجنس المعهود في الذهن مبالغة في المدح، ثم يأتي المخصوص بالمدح فيكون تفسيرا وإيضاحا لما أبهم فيما دخلت عليه (ال)، ولذا قيل إن المخصوص بالمدح أو الذم يأتي متأخرا عن هذه الأفعال، وإن تقدم اعتبر مشعرا بالمخصوص لا نفسه، فهذا هو مسلك هذا الأسلوب في النفوس.

وقد تُصعَّد درجة الإبهام في هذا الباب بأن يحل الضمير المستتر مع التمييز الذي يفسره محل الاسم الظاهر فاعل فعل المدح أو الذم، بأن نقول مثلا: (نعم رجلا

---

(١)- ينظر: في هذا مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح. ٢٧٧/١ وما بعدها. ، والأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم. ٤٠٥/١ وما بعدها. إبراهيم بن محمد بن عربشاه عصام الدين الحنفي. تح. عبد الحميد هنداوي. دار الكتب العلمية. بيروت – لبنان. بدون. ، وحاشية الصبان على شرح الأشموني على ألفية ابن مالك ومعه شرح الشواهد للعيني. ٤١/٢ وما بعدها. تح. طه عبد الرؤوف سعد. المكتبة التوفيقية. بدون.

زيد)، فهذا الضمير لم يتقدمه ما يفسره، وإنما هو – كما قال العلماء – يدل على متعقل مبهم يفسره التمييز[١]، وهو مع تمييزه بمنزلة الاسم الظاهر في المثال الأول، لكن الضمير يزيد درجة في الإبهام وتحريك النفوس عن الظاهر، ومن هنا قال البلاغيون: إن السر البلاغي لوضع المضمر موضع المظهر على هذا النحو هو تمكين المعنى؛ لما فيه من الإيضاح بعد الإبهام، وقد أورد ابن يعقوب المغربي اعتراضا على ذلك بأن (السامع ما لم يسمع المفسر لا يعتقد أن ثم ضميرا ينتظر له مفسرا، واقتضاء الفعل عند سماعه لفاعل ينتظر لو أوجب انتظارا يوجب التمكن لم يختص بباب نعم ولا بالضمير)[٢]، ثم رد عليه بأنه يُعلَم من ذلك (أن هذه ملح وطرف تجب مراعاتها، ولو لم تحصل بالفعل، وربما يؤخذ من ذلك أن ما يراعيه البليغ يكفي فيه تخيل وجوده) [٣]، وأرى أن تمكن المعنى في النفوس مع هذا الملمح أقوى، إذ يكون كأنه لحظة تنوير واستبصار؛ تتوالى فيها النقلات الذهنية والنفسية؛ بعد مفاجأة أو خدعة صغيرة تقابل المتلقي حين يمضي بذهنه مع الكلام متوقعا أن يجد الفاعل بعد الفعل كما في الأصل، لكنه يجد بدلا منه التمييز (الاسم النكرة المنصوب)، فيستنبط حينئذ أن الفاعل مستتر في الفعل الذي مر عليه، وأنه ضمير يدل على متعقل يفسره هذا التمييز، فتكون فرحته لوجدانه أكبر وأشد أثرا، ويتآزر مع تشكيل التركيب وبنيته، فيصير أشد تمكنا في النفوس والقلوب، ولذا رأى العلماء أن في هذا الأسلوب مزيد اعتناء بالمعنى، فيأتي في المقامات التي يكون للكلام فيها أهمية خاصة.

---

(١) – هذا كله على اعتبار أن جملة (نعم رجلا) جملة مستقلة؛ وأن المخصوص بالمدح إما مبتدأ حذف خبره، وإما خبر حذف مبتدؤه.

(٢) – مواهب الفتاح. ١/٢٧٩.

(٣) – مواهب الفتاح. ١/٢٧٩.

ضمير الشأن

وقد احتفى العلماء بالتركيب الذي يكون فيه هذا الضمير، وأولوه اهتماما خاصا في دراساتهم، فحللوه وشرحوه وفسروا وجه بلاغته، وذلك لما وجدوه فيه من خصوصية التعبير عن المعنى وقوة التأثير في السامع، ومبنى هذا التركيب يكون بأن يأتي ضمير مفرد غائب في بداية الجملة مسندا إليه، ثم تأتي بعده جملة تفسره وتبين المراد منه وتكون هي المسند، فالضمير في أول الأمر يكون مبهما غامضا عند السامع لا يعلم ما المقصود منه، ثم تأتي الجملة التي بعده فتوضح ما أبهم فيه، فيظهر المعنى بعد أن طلبته النفوس وتشوقت لمعرفته، فيحصل لها لذة العلم بعد ألم الجهل، فيكون لهذه الجملة أثرها المميز في النفوس، ويتمكن معناها في العقول خير تمكن، إذ تكون كزائر عظيم القدر يرسل من قبله من يهيأ له المكان ويعلم أهل البيت بمقدمه قبل وروده ويلوح لهم بعطاياه، فيستعدون لمقابلته مترقبين هباته وقد تحقق عندهم عظمته وخطر مكانته، ولو جاء الاسم المظهر (الشأن أو القصة) مكان هذا الضمير لم يكن له نفس الأثر لدلالته إجمالا على المعنى بخلاف الضمير الذي تنبهم دلالته عند السامع في أول الأمر فيحصل التشويق المنشود.

ومما ورد فيه ضمير الشأن فكان مغنيا عن طويل الكلام والجدل، قوله تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾[1]، جاء الضمير مؤذنا بأن الحديث عن جليل خطير، وعلى الآذان أن تصغي وعلى القلوب أن تستحضر وتؤهل لما سيلقى عليها، ثم جاءت جملة التوحيد (الله أحد)، والقلوب والأذهان على هذا الحال، فحق لها أن تقطع الريب عند من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، يقول الشيخ أبو موسى: (فقوله هو ضمير الشأن، ومفسره الجملة بعده، وواضح أن مضمونها معنى كبير هو محور الصراع فى تاريخ البشرية، ولو قال سبحانه: (الله أحد) لما وجدت للكلام هذا الأثر

---

(١) – الإخلاص. ١.

وهذه القوة التى تحسها النفس من هذه التهيئة المؤذنة بأن ما سيأتى بعدها كلام له خطر عظيم)[١].

وقد اعترض بأن انتظار المعنى والتشوق له إنما يتحقق عند وجود مهلة بين ذكر الضمير ومفسره، وليس هنا ما يتطلب السكوت بين الضمير ومفسره لكي تحصل هذه المهلة، وأجيب عن هذا الاعتراض أيضا بـ(أن هذه ملح وطرف تجب مراعاتها، ولو لم تحصل بالفعل، وربما يؤخذ من ذلك أن ما يراعيه البليغ يكفي فيه تخيل وجوده) [٢]، وأرى أن لو كان الأمر يعتمد على المهلة فسنضطر لإلغاء بلاغة أكثر ما اعتبرت بلاغته من جهة الإيضاح بعد الإبهام لعدم وجود هذه المهلة غالبا إلا مع وجود فاصل كلامي، كما أنه لا يجب أن نغفل عن دور النبر والتنغيم في الكلام واختلاف أثر النص باختلاف طريقة إلقائه، لذا لا يمنع أن تكون هناك سكتات خاطفة في مثل هذه التراكيب تعين على استيعاب أثرها وتفعيل وظيفتها، ومن ناحية أخرى فقد أثبت العلم الحديث أن العمليات العقلية قد تتوالى في العقل البشري وينشأ بسببها مشاعر وانفعالات بسرعة تخالف هذه التوقعات تماما، فما قاله العلماء عن مثل هذه العمليات هو تعبير عما لحظوه في أنفسهم وطريقة تفكيرهم وتأثر غيرهم بسبب هذا الأسلوب، مما يعني أن تفسيرهم – وإن بدا خياليا وقتها – هو تفسير صحيح علميا، وفيه تحليل نفسي وعقلي واع ودقيق، ولو أنه قدر لنا أن نرى أبحاثا تتعلق بأثر الأساليب البلاغية على الدماغ والأعصاب وتشكيل المشاعر؛ تستخدم فيها أجهزة قياس وكشف حديثة؛ فأظن أننا سنجد تفسيرات علمية أكثر دقة، لكن أساس ذلك غالبا لن يخرج عما هو مبثوث في كتب علمائنا الأوائل، أدركوه بفطنتهم وسلامة فطرتهم.

---

(١) – خصائص التراكيب. ٢٤٢.

(٢) – مواهب الفتاح. ٢٧٩/١.

ولهذا التركيب ضوابطه ليتشكل تأثيره ويحقق غرضه، فضمير الشأن يلزم الإفراد والغيبة والتقديم، فأما إفراده فلأنه في العقول بمعنى الشأن أو القصة، وأما الغيبة والتقدم فليتحقق الإبهام الذي يشوق النفوس ويحركها؛ لأن الضمير الغائب يحتاج لما يعود عليه؛ وتقدمه يجعل النفوس تطلب تفسيره، يقول السكاكي: (السامع متى لم يفهم من الضمير معنى بقى منتظرا لعقبى الكلام كيف تكون فيتمكن المسموع بعده فضل تمكن في ذهنه، وهو السر في التزام تقديمه)[1]، ولا يتبع بأي من التوابع، لأنها توضح متبوعها مما يخل بالإبهام المطلوب فيه، ويفسر بجملة تقع خبرا عنه، وتكون خبرية، فهي تفسير وتتميم للفائدة، ولا يجوز حذف بعضها على الأرجح (لأنها مؤكدة به، ومدلول به على فخامة مدلولها، واختصارها مناف لذلك فلا يجوز) [2].

وقد أشار الشيخ عبد القاهر الجرجاني إلى أن مجيء (إن) مع ضمير الشأن يكسبه من اللطائف والمزايا ما لا يكون له بدونها، حتى إنه لا يتأتي أن يجيء مع جملة الشرط وجوابه إلا مقترنا بها، نحو قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي ۖ قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ۖ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾[3]، والناظر في سياق الآية يجد ضمير شأن قد ورد في موقف حساس، يموج بالتوتر والانفعالات، فهو لحظة انكشاف الأمر وظهور الحقيقة أمام إخوة يوسف عليهم كلهم السلام، ولحظة انتصار الحق وظهور فضل الله ومنته على يوسف وأخيه عليهما السلام، وقد قال الشيخ ابن عاشور عن جملة ضمير الشأن: (أراد يوسف عليه السلام تعليمهم وسائل التعرض إلى نعم الله تعالى، وحثهم على التقوى والتخلق بالصبر تعريضا بأنهم لم يتقوا الله فيه وفي أخيه ولم يصبروا على

(١) – مفتاح العلوم. ١٩٨.

(٢) – شرح التسهيل لابن مالك. ١٦٣.

(٣) – يوسف. ٩٠.

إيثار أبيهم إياهما عليهم، وهذا من أفانين الخطابة أن يغتنم الواعظ الفرصة لإلقاء الموعظة، وهي فرصة تأثر السامع وانفعاله وظهور شواهد صدق الواعظ في موعظته)[١]، فالتعظيم والتفخيم في هذه الجملة يتناسب مع جلال الموقف وعظم الرسالة المستخلصة من هذه التجربة الإنسانية العجيبة، ولو قيل في غير القرآن الكريم: (هو من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين)؛ لما ساغت الجملة ولما كان لها هذا الوقع الذي حفر في القلوب حتى صارت الآية جارية مجرى المثل بين الناس.

ويجوز في هذا الضمير أن يأتي مؤنثا أيضا؛ لكن يشترط أن يكون في الجملة التي تفسره مؤنث عمدة، وذلك من جهة التآخي بين الكلمات وليس لأن الضمير يعود على هذا المؤنث، فهذا مما يلحظ به ما في اللسان العربي من دقة وحس مرهف بتناسب الألفاظ والمعاني، مثل قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[٢].

وأسلوب على هذا النحو من استنفار العقل والحس إنما يأتي في الأخبار التي تحتاج لتفخيمها وتعظيم مدلولاتها، أو الإيحاء بأن لها درجة خاصة من الأهمية، فلا يؤتى به في الأخبار العادية، فلا بد أن يتوافق الخبر مع ما فيها من الفخامة والتعظيم، إذ لو فرضنا أنها قيلت في غير ذلك نحو: (هو زيد قائم)؛ فسنجد أننا نستهلك من طاقة السامع نفسيا وفكريا وهو يترقب ما يكافئ هذا، ثم يجده أمرا عاديا لا يحتاج لما أهدر من طاقته، وهذا أمر محبط يعود سلبا على الاهتمام بهذا الخبر،

---

(١) – تفسير التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد». ٤٩/١٣. محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي. الدار التونسية للنشر. – تونس. ١٩٨٤م.

(٢) – الحج. ٤٦.

لأن إعلاء سقف التوقع على هذا النحو احتشاد زائد لما لا يستحق يخيب أمله في أن يجد شيئا مميزا، فيفقد ثقته بقدرة المتكلم على إدارة الكلام على الوجه الصحيح، لكن إذا طرأ على مثل هذه الأخبار العادية من عوارض الأحوال ما يجعل لها أهمية خاصة عند المتكلم أو السامع أو كليهما فلا مانع عندئذ استعمال ضمير الشأن لإضفاء الأهمية والتفخيم على الخبر بما يتلاءم مع المقام والسياق، فلو قيل: (هو زيد قائم) عن شخص كان يعاني شللا أو داء عضالا لا يرجى معه قيام، ثم من الله عليه بالشفاء والقدرة على الحركة، فهذا لا يعاب ولا يمنع.

ومما يدخل في استعمال ضمير الشأن ما نجده عند كتابة العقود والقرارات الإدارية من نحو: (إنه في يوم كذا تم عقد بيع...) و(إنه قد تقرر عقد مجلس...)، وذلك لأن العقود وتوثيقها من الأمور المهمة عند أصحابها، ولأن القرارات الإدارية تحتاج للإشعار بأهميتها وأهمية العمل بها.

ومن الملاحظ أن الشراح ومن تابعهم قد أشاروا إلى أن من وضع المضمر موضع المظهر مواضع أخرى من تفسير الضمير بمتأخر عنه لفظا ورتبة؛ مثل: ضمير (رب) المفسر بتمييزه؛ والضمير المرفوع بأول المتنازعين المعمل ثانيهما، ومثل ذلك أيضا: الضمير المفسر بالمبدل منه؛ والضمير المبتدأ المفسر بخبره، لكنهم لم يفردوا أيا من ذلك بالدراسة والتحليل كما في بابي (نعم) وضمير الشأن، فمن ناحية اكتفوا بالإشارة إلى المبدأ العام في ذلك وشرح توظيفه مع كل، ومن ناحية أخرى فهذه الأساليب ليست بنفس قوة الأسلوبين الذين تعرضوا لشرحهما فلم تحتج للتحليل والتفسير مثلهما، وإنما اندرجت تبعا فيما فسروا به طبيعة الأسلوب في باب (نعم) وفي ضمير الشأن.

المبحث الرابع
قضايا متنوعة

ضمير الفصل

يتوسط ضمير الفصل بين المبتدأ والخبر أو ما أصله المبتدأ والخبر، ليدل على أن ما بعده خبر لا تابع، وهو بذلك يقطع ترقب المتلقي لمجيء الخبر ويمنع اللبس، ويساعد في توضيح المعنى المقصود، ففيه مبادرة من المتكلم بتحديد أجزاء الجملة أمام المتلقي، وكأنه يوجهه لاستيعاب محل الحكم والتركيز عليه، ويحترز له عن الخلط أو اللبس فيه، وهذا يكون لاعتناء المتكلم بتحديد النسبة الإسنادية بين طرفي الإسناد، وتهيئة المتلقي للحصول على الخبر، إذ يؤذنه بأنه على وشك الوصول للخبر الذي يتم به معنى الكلام وفائدته، ففيه تهيئة لمجيء الخبر؛ فيدخل دخول المستأذن له، فيجد مع القبول الترحاب وحسن التلقي.

ومما يظهر فيه بوضوح أثر ضمير الفصل في تعيين وظيفة الكلمة خبرا في الجملة ودور ذلك في الدلالة والمعنى قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيد ﴾[1]، فالآية الكريمة فيها تمثيل لحال الذين كفروا حين يلقون العذاب المهول يوم القيامة؛ فيلتفتون لأعمالهم لعلهم يجدون فيها ما ينجيهم مما هم فيه؛ فإذا هي هباء لم يبق لهم منها شيء يستعينون به على تخفيف العذاب عنهم، فحالهم مع أعمالهم كحال رماد هاجت به ريح يوم عاصف، فاقتلعته اقتلاعا، وطارت به منتثرا، فحق لأصحابه أن ييأسوا من اللحاق بشيء منه، مهما استفرغوا من جهدهم، وحتى إن لحقوا بشيء منه فما هو إلا رماد بلا نفع، فقد ضلوا الطريق الصحيح وأبعدوا فيه عن طريق الحق أيما إبعاد.

---

(١) – إبراهيم. ١٨.

وجاء التذييل في نهاية الآية (ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ)، فجمع تحت اسم الإشارة كل ما اشتمل عليه المثل وأحضره أمام المتلقي مرة أخرى، وحكم عليه بأنه ضلال بعيد، أي: مبالغ في بعده عن طريق الحق والهدى، فمجيء ضمير الفصل عين لكلمة (الضلال) وظيفة الخبر عن اسم الإشارة (ذلك)، وصار بذلك (البعيد) نعتا له، ولو فرضنا أنه قيل في غير القرآن الكريم: (ذلك الضلال البعيد) لجاز أن يكون (الضلال) عطف بيان لاسم الإشارة، فيكون الخبر حينئذ (البعيد)، كأنه قيل: (ذلك الضلال هو البعيد)، أي: أن هذا الضلال مستبعد حصوله، فالمعنى على ذلك منقلب عن وجهه تماما، بينما في نص الآية الكريمة تجد ضمير الفصل قد آذن بأن الخبر هو (الضلال)، وهيأ القلوب لفهم المعنى المراد دون تخبط أو لبس مريك.

ومن فوائد ضمير الفصل أيضا القصر، لكنه لم يذكر في طرق القصر الاصطلاحية عند الشراح ومن تابعهم، وقد علل سعد الدين التفتازاني ذلك بأن القصر بضمير الفصل لما ذكر في باب المسند إليه لم يعودوا لذكره مرة أخرى(١)، والمقصور في هذا الطريق هو المسند؛ والمقصور عليه هو المسند إليه، وقد ذكر بهاء الدين السبكي أن هناك من رأى أن المقصور هو المسند إليه والمقصور عليه هو المسند، ومن رأى أنه يجوز الوجهان وأن المعنى المقصود هو ما يحدد المقصور والمقصور عليه في هذا الطريق، وقد رد بهاء الدين السبكي هذين الرأيين بأنهما من قبيل السهو والوهم(٢).

---

(١) – ينظر: المطول في شرح تلخيص المفتاح. ٢١٠. سعد الدين التفتازاني. وبهامشه حاشية المير سيد شريف. المكتبة الأزهرية للتراث. القاهرة. ٢٠١٣م.

(٢) – ينظر: عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح. ٢٢٩. أحمد بن علي بن عبد الكافي، أبو حامد، بهاء الدين السبكي. تح. عبد الحميد هنداوي. المكتبة العصرية للطباعة والنشر. بيروت – لبنان. ط١. ٢٠٠٣م.

ومن مجيء ضمير الفصل لمعنى القصر قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴾ (١)، جاءت هذه الآية الكريمة بعد أن ذكر الله سبحانه وتعالى جزاء الذين آمنوا وقدموا أعمال البر والخير، وصبروا ورحموا، وتواصوا بالصبر والرحمة ليشيعا في المجتمع بغية إصلاحه على خير وجه، ووصفهم سبحانه وتعالى بأنهم من أصحاب اليمن والبركات، ومنزلة اليمين والكرامة، فلهم بذلك خير الدنيا والآخرة.

ثم ذكر حال من هم بالضد من ذلك (الذين كفروا)، وتوعدهم بسوء المنزلة وبؤس العاقبة في نار توصد عليهم فلا يخرجون منها، وجعلهم من أهل الشؤم والإهانة، بل قصر هذه المنزلة عليهم، فلا تتجاوزهم لمن ذكروا قبلهم، فجاء ضمير الفصل ليفيد قصر الخبر (أصحاب المشأمة) على المبتدأ (الذين كفروا)، وفي هذا القصر ما يجابه به ما يلقيه الشيطان في النفوس ويروجه أتباعه مما يسممون به حلاوة الرحمة ويكرهونها إلى الناس من نحو بعض الأمثال التي تفيد بأن الشفقة مجلبة فقر وشؤم، ففي هذا القصر إثبات لهذه المنزلة للكافرين ونفيها عن المؤمنين، ولم يقصر منزلة الميمنة على من تواصوا بالصبر والمرحمة، لأنها قد تدرك بغير ذلك من الأعمال، فرحمته سبحانه وتعالى واسعة، وإحسانه أكبر من عقابه.

كما أن اشتمال الجملة على ضمير الفصل يزيدها تمكينا وتقريرا، فهو من مؤكدات الكلام، واختلف فيما يؤكَّد به، فقيل يؤكد النسبة الإسنادية مثل: (إن)؛ لأنه يؤكد ارتباط الخبر بالمبتدأ، وقيل: يؤكد المسند إليه لأنه ينبغي أن يطابقه من حيث التكلم والخطاب والغيبة؛ والإفراد والتثنية والجمع؛ والتذكير والتأنيث، مع مراعاة أنه ليس توكيدا نحويا وإنما هو من التوكيد البلاغي، والأرجح أنه يؤكد النسبة

(١) – البلد.١٩.

الإسنادية[1]، وهذا يستتبعه عندي تقرر طرفي الإسناد في النفوس، وقيل: هو توكيد لمعنى القصر في الجملة إذا كانت تدل عليه بدون ضمير الفصل، أو تأكيد لمعنى المقايسة إذا لم يكن القصر مقصودا في الجملة[2].

ومن التوكيد بضمير الفصل ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴾ [3]، فسياق الآية في اللوم على ما يلقيه البعض من الشبهات فيما يحله الله لعباده أو يحرمه عليهم، فلم يكتفوا باتباع هواهم؛ وإنما سعوا في إضلال غيرهم إرضاء لنفوسهم وهواهم، واعتداء منهم على حدود الله وتشريعاته، فتجدهم يحلون حراما ويحرمون حلالا، ومن ذلك جدالهم في أكل الميتة وما أشبهها في الحرمة على سبيل اتباع الهوى، ونجد في أيامنا هذه من يحرم ما أحل الله من لحم الحيوان الذي ذُكِّي على اسم الله سبحانه وتعالى، وهم بذلك معتدون آثمون، تجاوزوا حدودهم مع الله سبحانه وتعالى، وآذوا غيرهم بسفاهاتهم، فأضروا من تبعوهم في غيهم وجروا عليهم الأذى في الدنيا والآخرة.

وقد أخبر الله عز وجل عن هذه الحال، وحذر عباده من اتباع من غايتهم الغي والإضلال، ومثل هؤلاء لا يظهرون وجوههم الحقيقية فسهل الانخداع بهم وبشبهاتهم، ولم يك من حصن آمن من غيهم مثل التحصن بهدي الله سبحانه وتعالى باتباع أوامره واجتناب نواهيه، فهذا مقام يحتاج فيه العبد لتأكيد مقام ربوبية الله عز وجل في نفسه، وتأكيد علمه بحال هؤلاء الغواة من الاعتداء والبغي، فأكد

---

(١) – ينظر: عروس الأفراح. ٢٢٨.

(٢) – ينظر: معاني النحو. ١/٥٤.

(٣) – الأنعام. ١١٩.

الجملة بـ(إن)، ووجه إليهم الخطاب، وذكرهم ربوبيته لهم، وجاء ضمير الفصل ليوثق عندهم علمه تعالى بحقيقة من يخادعونهم، كما أن فيه تحذيرا لمن أكل شيئا من هذا في حال الضرورة لئلا يعتدي بأن يزيد عن حد ما يبقيه حيا.

ولا مانع من اجتماع الفوائد الثلاث أو اثنتين منها في الجملة الواحدة.

قضايا تتصل بضعف التأليف

القواعد النحوية التي على أساسها يكون تأليف الكلام ونظمه منها ما هو متفق عليه ولا تصح مخالفته؛ فإذا جاء في الكلام ما يخالفها عُدَّ ذلك مفسدا للنظم؛ وصار من ساقط الكلام الذي لا يعتد به، ومنها ما يكون هو الأرجح والمشهور الذائع الاستعمال؛ لكن توجد مذاهب مرجوحة أو آراء ضعيفة تخالفه، فإذا جاء الكلام على هذه الطريقة غير الراجحة عُدَّ ذلك من ضعف التأليف الذي يخل بفصاحة الكلام[١]، فهذا يشبه اعتبارهم استعمال الكلمة غير المألوفة عند العرب الخلص عيبا يخل بفصاحة الكلمة رغم أنها وردت عن عرب خلص أيضا، لكنها لما لم تكن شائعة عندهم عدوا استعمالها عيبا يخل بالفصاحة، ومما تعرضوا له في مسألة ضعف التأليف وله اتصال بقضايا الضمير:

(١) – ينظر: جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع. ٢٢. السيد أحمد الهاشمي. تح. حسن حمد. دار الجيل. بيروت. بدون.

عود الضمير المتصل بالفاعل المقدم على المفعول المؤخر

الأصل في ضمير الغيبة أن يتقدم عليه ما يفسره إما لفظا ورتبة؛ وإما لفظا فقط؛ وإما رتبة فقط، أما أن يفسر بمتأخر عنه في اللفظ والرتبة فقد حدده العلماء بمواضع سبق ذكرها، وقد ذكروا أن مما خالف هذه القاعدة أن يعود الضمير المتصل بالفاعل المقدم على المفعول المؤخر، لكن هذا الرأي ليس ثابتا، فمن العلماء من أجاز هذا التركيب مطلقا، ومنهم ابن جني الذي علل له بقوله: (والأمر في كثرة تقديم المفعول على الفاعل في القرآن وفصيح الكلام متعالم غير مستنكر، فلما كثر وشاع تقديم المفعول على الفاعل كان الموضع له، حتى إنه إذا أخر فموضعه التقديم، فعلى ذلك كأنه قال: جزى عديَ بن حاتم ربُّه ثم قدم الفاعل على أنه قد قدره مقدما عليه مفعوله فجاز ذلك، ولا تستنكر هذا الذي صورته لك ولا يجف عليك، فإنه مما تقبله هذه اللغة ولا تعافه ولا تتبشعه)[1].

ومن الأبيات المشهورة التي أتت على هذا النحو: قول حسان بن ثابت في مطعم بن عدي الذي كان قد أجار النبي صلى الله عليه وسلم لما قدم الطائف؛ وقد مات ولم يسلم[2]:

فَلَو كانَ مَجدٌ أخلدَ اليَومَ واحِدًا مِنَ الناسِ أَبقى مَجدُهُ اليَومَ مُطعِما[3]

---

(١) – الخصائص. ٢٩٨/١. أبو الفتح عثمان بن جني. حمد علي النجار. الهيئة المصرية العامة للكتاب. بدون.

(٢) – ينظر: شرح شواهد المغني. ٨٧٥/٢. عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي. وقف على طبعه وعلق حواشيه: أحمد ظافر كوجان. مذيل وتعليقات: الشيخ محمد محمود ابن التلاميد التركزي الشنقيطي. لجنة التراث العربي. ١٩٦٦م.

(٣) – موجود في الديوان بلفظ (يخلد)، ديوان حسان بن ثابت. ٢٣٥ وما بعدها. حسان بن ثابت، شرح. عبدأ علي مهنا، دار الكتب العلمية، ط٢. ١٩٩٤م.

ومنها أيضا[١]:

جـزى ربُّـهُ عنـي عـديَ بـن حـاتمٍ جـزاءَ الكـلابِ العاويـاتِ وقـدْ فعـل

ومنها أيضا[٢]:

جـزى بنـوه أبـا الغـيلانِ عـن كبـرٍ وحسـنِ فعـلٍ كمـا يجـزى سِـنمَّار

فـي هـذه الأبيـات الثلاثـة اتصـل الضـمير بالفاعـل المتقـدم وعـاد علـى المفعـول المتأخر في (مجده – مطعما)، (ربه – عدي)، (بنوه – أبا الغيلان)، وبيت حسان بن ثابت جاء في رثاء أحد الكفار، لكنه له يد على المسلمين حين وقف أمام قومه وأجار النبي صلى الله عليه وسلم، وقد حفظ له المسلمون هذه اليد، فلما مات رثاه حسان بهذا البيت وقبله:

أَعَينِ أَلا اِبكـي سَيِّدَ النـاسِ وَاسفَحي بِـدَمعٍ فَـإِن أَنزَفتِـهِ فَاسـكُبي الـدِما

وَبَكّـي عَظـيمَ المَشـعَرَينِ وَرَبَّهـا عَلـى النـاسِ مَعـروفٌ لَـهُ مـا تَكَلَّمـا

فهو إنما يبكيه ويهتم برثائه لأجل ما قدمه للنبي صلى الله عليه وسلم، وهذا هو مجده المقصود في البيت محل الشاهد، ولذا كان التفات خاطره إليه على ما أظن، وأظنه أيضا أراد أن يكون ذلك هو محل التفات السامع واهتمامه، فقدم (مجده) على (مطعما) لذلك، ولم يهتم لقلة استعمال هذه الطريقة في الكلام، بل إنني أرى أن في ارتكابه ذلك الفعل لفتا قويا لكون المهم هو فعاله الكريمة مع النبي صلى الله عليه وسلم، وأنه لأجل ذلك يرثيه ويهتم لأمره.

---

(١) – لم يرد إلا في الشواهد وقد نسب البيت لأكثر من قائل منهم أبو الأسود الدؤلي. منحة الجليل بتحقيق شرح ابن عقيل. ١٠٨/٢.

(٢) – البيت لسليط بن سعد وليس له سابق ولا لاحق. منحة الجليل بتحقيق شرح ابن عقيل. ١٠٩/٢.

والبيتان الأخيران جاءا منفردين وبلا نسبة، فليس من الممكن معرفة سبب مجيئهما على هذا النحو، وقد قيل: إن الضمير في بيت (جزى ربه عني عدي)، يعود على الجزاء المفهوم من الفعل (جزى) قياسا على عود الضمير على المصدر المفهوم من الفعل في قوله تعالى: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ﴾[1]، فليس من عود الضمير على متأخر لفظا ورتبة، ورد ذلك الشيخ عبد المتعال الصعيدي؛ لأن (الضمير في الآية ظاهر العود على العدل، أما البيت فضميره ظاهر العود على عدي، ولا داعي إلى تكلف عوده إلى الجزاء)[2].

اتصال الضمير بـ(إلا)

الأصل المشهور عدم جواز اتصال الضمير بـ(إلا)، لكن خولف هذا الأصل ووردت أبيات اتصل فيها الضمير بـ(إلا)، ومنها[3]:

أعوذ برب العرش من فئة بغت علي فما لي عوض إلاه ناصر

ومنها[4]:

وما علينا إذا ما كنت جارتنا أن لا يجاورنا إلّاك ديّار

ومنها قول المتنبي في سيف الدولة[5]:

لَيسَ إلّاكَ يا عَلِيُّ هُمامٌ سَيفُهُ دونَ عِرضِهِ مَسلولُ

---

(١) – المائدة. ٨.

(٢) – بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع. ١٧. عبد المتعال الصعيدي. مكتبة الآداب. ط ١٧. ٢٠٠٥م.

(٣) – من الشواهد التي لا يعرف قائلها. منحة الجليل بتحقيق شرح ابن عقيل. ٨٩/١.

(٤) – من الشواهد التي لا يعرف قائلها. منحة الجليل بتحقيق شرح ابن عقيل. ٩٠/١.

(٥) – ديوان المتنبي. ٤٣١.

والبيتان الأولان مفردان مجهولا النسبة، وبيت المتنبي ورد برواية (سواك)[١]، فليس فيه خروج على القاعدة، على أنه من المهم الإشارة إلى أن قاعدة عدم جواز اتصال الضمير بـ(إلا) ذاتها مختلف فيها بين الجواز مطلقا؛ والمنع مطلقا؛ والجواز في ضرورة الشعر فقط[٢]، لكن مجيء الضمير متصلا بـ(إلا) ليس مشهورا ولا ذائعا في كلام العرب الخلص، لذا فمن الأولى ألا يستعمل جريا على المشهور في كلامهم.

اتصال ضميرين منصوبين بفعل واحد والثاني منهما أخص من الأول

إذا اتصل ضميران منصوبان بفعل واحد وكان أحدهما أخص من الآخر؛ قدم الأخص وآخر الثاني، أو يفصل أحد الضميرين عن الفعل، ومما جاء مخالفا لذلك قول المتنبي[٣]:

خَلَتِ البِلادُ مِنَ الغَزالَةِ لَيلَها فَأَعاضَهاكَ اللَهُ كَي لا تَحزَنا

وليس هذا هو الأسلوب الوحيد في هذه القصيدة الذي به غرابة أو خروج عن المألوف، ويبدو أن المتنبي كان يريد إثارة غيظ ابن كروس حاسده والواشي به بأن

---

(١) – وأنكر المبرد وروده بغيرها أصلا. ينظر: منحة الجليل بتحقيق شرح ابن عقيل. ٩١/١.

(٢) – ينظر: توضيح المسالك إلى ألفية ابن مالك. ٣٦/١.

(٣) – ديوان المتنبي ١٥٠ وما بعدها، هذا البيت هو البيت الأخير في قصيدة قالها في دفع وشاية كانت إلى بدر بن عمار بن إسماعيل الأسدي الطبرستاني أمير طبرية، وكانت السعاية قد وقعت من ابن كروس الأعور، وهو أحد كتبة بدر أو وزرائه، وقد كان يحسد المتنبي على سرعة بديهته، وقبل هذا البيت يقول:

غَضَبُ الحَسودِ إِذا لَقيتُكَ راضِياً رُزءٌ أَخَفُّ عَلَيَّ مِن أَن يوزَنا

أَمسى الَّذي أَمسى بِرَبِّكَ كافِراً مِن غَيرِنا مَعَنا بِفَضلِكَ مُؤمِنا

يأتيه بما لم يعتده، ويسمعه ما لا يعرفه، وهذا في ذاته غرض للشاعر، وبلوغه والإبلاغ به بلاغة.

انفصال الضمير على خلاف الأصل

الأصل في الضمير الاتصال، ولا ينفصل الضمير إلا إذا لم يتأت الاتصال، وذلك يكون في مواضع معلومة سبقت الإشارة إليها، وقد خالف ذلك الفرزدق في قوله[1]:

بِالبَاعِثِ الوَارِثِ الأمْوَات قَد ضَمِنَتْ إياهم الأرضُ في دَهْرِ الدَّهَارِيرِ

وطرفة بن العبد في قوله[2]:

أصرمْتَ حبلَ الوصلِ؟ بلْ صرموا يا صاحِ، بل قطعَ الوصالَ همُ

وزياد بن منقذ العدوي في قوله[3]:

وما أصاحِبُ من قومٍ فأذكرُهم إلا يزيدُهم حبًّا إليَّ همُ

وقد وقع في نفسي أن الضمير في المواضع الثلاثة مما لم يتأت وصله بحسب المعنى والمقام وما يطلبانه، ففي بيت الفرزدق نجده يخاطب يزيد بن عبد الملك ويذكر الخلفاء ومن قبلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلم يشأ أن يذكر قبض الأرض عليهم صراحة فاستعمل الفعل (ضمن) بدلا من (ضمَّ)، وفصل الضمير لئلا يتصل فيكون كالجزء من الفعل، بل يكون كلمة مستقلة، فكأنهم ما زالوا على حالهم لم يصيروا جزءا من الأرض حتى وأن احتوتهم، وهذا مما أوحى به فصل الضمير عن الفعل، ولو اتصل لم يكن ثم ما يوحي بهذا المعنى.

---

(١) – ديوان الفرزدق. ١٩٠. همام بن صعصعة بن غالب التميمي شرح. علي فاعور. دار الكتب العلمية، ط١. ١٩٨٧م

(٢) – نسب هذا البيت لطرفة بن العبد في منحة الجليل بتحقيق شرح ابن عقيل. ١٠٢/١. ولم أجده في ديوانه.

(٣) – هكذا وجدته في منحة الجليل بتحقيق شرح ابن عقيل. ١٠٢/١.

وفصل الضمير (هم) في البيتين الأخيرين أعطى معنى الحصر، نعم هذا ليس من طرق القصر الاصطلاحية، لكن لا يُنكَر أن من الكلام ووسائله ما يدل على القصر من غير هذه الطرق، فيمكن اعتبار أن فصل الضمير كان وفاء بتأدية المعنى، وبذلك لا يتأتى الاتصال، ففي أولهما ينفي الشاعر عن نفسه أن يكون هو من قطع الوصال، ويثبته لغيره، ولو اكتفى بأن يقول: (بل قطعوا الوصال) ووصل الضمير لم يكن في الكلام ما يدل على انفرادهم بهذا الفعل، وفي البيت الأخير جعل زيادة حبه للناس راجع إليهم، فليس هو من يختار من تزيد محبته عنده، وإنما يفعل الإنسان ما يحببه إليه فيزداد الشاعر حبا له، وهذا المعنى لا يحصل إذا اتصل الضمير، وبذلك يكون اتصال الضمير مع المعنى المقصود مما لا يتأتى، فيكون انفصال الضمير في هذا المقام غير خارج عن القواعد التي وضعها أهل اللغة، ولو كان العلماء يكتفون بالمواضع التي ذكروها لانفصال الضمير لما وضعوا قاعدة عامة ليقاس عليها، ولكانوا اكتفوا بذكر المواضع تحديدا فقط.

وهنا سؤال، لم تتبع العلماء مثل هذه المواضع؟ ولم لم يميتوها بالسكوت عنها؟ ولو أنهم كانوا فعلوا ذلك لم يكن عليهم شيء، ولكنهم فعلوا ذلك حماية للُّغة وقواعدها من التلاعب والتغيير، فتنبيههم على مثل هذه الأساليب؛ والإشارة لمحل الخطأ فيها؛ وتسجيل ذلك في الكتب والمجالس؛ كان لمنع تكراره ومن ثم شيوعه، بل كان مؤشرا تحذيريا واضحا؛ لئلا يتغافل أحد عن القواعد والأصول التي بنيت عليها اللغة أو يحاول تخطيها ولو في ضرورة الشعر، فقد حرص العرب منذ الجاهلية على لغتهم واعتزوا بها، وزاد ذلك بعد نزول القرآن الكريم بها، فزاد حرصهم – خاصة العلماء – على الحفاظ عليها بعيدا عن التغيير والتبديل، أعاننا الله على أن نسير على خطاهم، والله ولي التوفيق.

الخاتمة

وكان من أبرز النتائج التي أفضت الدراسة إلى استخلاصها:

– الضمائر كاشفة عن الضمائر إذا أجاد المنشئ توظيفها وأحسن المتلقي تلقي إشاراتها، فطريقة استعمال الضمائر وتوظيفها من المؤشرات التي تظهر من خلالها شخصية الأديب، وتعين على التعرف على فنيته وبلاغته.

– دلالات الضمير وتوظيفها تتشكل من مفردات مفهومه، فدلالة التكلم أو الخطاب أو الغيبة لها دورها، وكذا دلالة الضمير على النوع أو العدد، فبحسب ذلك كله تتنوع دلالات الضمير، ويتفنن الأديب في استغلال ذلك لتلوين كلامه والتعبير عما يريد.

– دلالات التكلم إفرادا وجمعا تفشي كثيرا من أسرار نفس صاحبها، فقد تميز نوع شخصيته وميوله، وقد تعبر عن عواطفه وانفعالاته، وقد تحمل حججه أو تعكس أفكاره عن ذاته وعما حوله، وقد تساعد المتكلم على إثبات وجوده جزءا من النص مما يربط بينه وبين عناصره الأخرى.

– استعمال ضمير الخطاب قد يساعد في تقريب المسافات والتأثير على المشاعر والعواطف، وقد يشكل موقف المواجهة والصدام، وقد يساعد على تمثل العلاقة بين المتكلم ومخاطبه، ويعين على تشكيل الارتباطات بين صاحبه والنص وعناصره، كما قد يساعد في تشكيل الصور والأخيلة وتأنيس ما ليس من بني الإنسان فيدل على ما يستتبع ذلك من حالات وحاجات نفسية وعقلية.

– ولضمير الغائب أثره في تجنب المواجهة، والتعبير عن بعد صاحبه – ولو بشكل نسبي – عن الحضور، وقد يستتبع ذلك تعظيما أو تحقيرا، وقد يكون ذلك تلبية لاحتياج المتكلم لتغييب صاحب الضمير عن الموقف الكلامي.

– مما يتصل باستعمال الضمير وتوظيفه فن الاستخدام، إذ يعتمد على ارتباط الضمير بمرجعه، وما يؤديه ذلك من تداعي المعاني والارتباطات.

– اختيار إفراد الضمير أو تثنيته أو جمعه، واختيار تذكيره أو تأنيثه يكون لمعنى ومقصد، والمعاني في ذلك كثيرة لا تحصى، تختلف باختلاف المقامات والسياقات وأغراض الكلام، لكن يمكن النظر إلى دلالات ما يأتي في كل موضع والبحث عما يتفق منه مع السياق، فالتذكير قد يدل على قوة في الفعل أو الأثر، والتأنيث قد قد يشير إلى الرحمة أو اللين، والإفراد قد يدل على الوحدة أو القلة أو الجنس نفسه، والجمع قد يوحي بالكثرة أو التكرار أو القوة، وهكذا.

– يعتبر فن الالتفات كما عرَّفه الجمهور مبنيا بالأساس على مقتضيات التكلم والخطاب والغيبة ودلالاتها.

– العدول بالتغيير بين مقامات التكلم والخطاب والغيبة قد يلمح منه تشكيل وجود ثان يشارك الوجود الأول ويتكامل معه في التعبير وإحداث التأثير المطلوب في المتلقي، وقد يساعد على تجسيد صراع أو أزمة يمر بها المتكلم أو يحاصِر بها المتلقي، وقد يشكل صراعا بين الحضور والغيبة أو بين الذات والآخر، أو يمثل اتحادا بين هذا وذاك، أو يجسد التغاير والاختلاف والتعدد في الرؤية وما يترتب عليها من آراء ومواقف، كما أن فيه مفاجأة المتلقي ومباغتته بما لم يتوقعه، إلى غير ذلك من النكات والأسرار البلاغية التي تختلف باختلاف السياقات، لكن يظهر في كل ذلك أن أسلوب الالتفات يأتي فيما له أهمية فكرية أو نفسية ولو في تصور المتحدث فقط.

– وضع المضمر موضع المظهر مبني على أساس نفسي يعتمد على استثارة عقل المتلقي بالإبهام، فإذا أحس باحتياجه للفهم وتشوقه للعلم جاءه الإيضاح، فيكون كبرد الماء على حر الصدى.

– أسلوب (نعم وبئس) وأسلوب ضمير الشأن من الأساليب التي لا تأتي إلا في المقامات التي تحتاج إلى تعظيم المعنى وتفخيمه في النفوس.

– تظهر فاعلية الضمير في باب (نعم) إذا كان ما بعدها تمييزا نكرة منصوبا – لا فاعلا – وكان المخصوص بالمدح أو الذم جزءا من جملة أخرى – خبرا لمبتدأ محذوف أو مبتدأ حذف خبره – فحينئذ يفاجأ المتلقي بغير ما يتوقع، فيراجع عقله حتى يستقيم عنده المعنى وتتضح الفكرة، وهذا مما يعطي المعنى عنده مزيد خصوصية واهتمام.

– يحصل المعنى عند المتلقي في الجملة التي فيها ضمير الشأن بعد معالجة عقلية شيقة للألفاظ من خلال مجموعة من العمليات العقلية والنقلات الذهنية، مما يجعل المعنى يتمكن في العقول ويلذ النفوس الحصول عليه.

– يؤدي ضمير الفصل إلى تحديد المعاني وتوضيحها، حيث يميز بين الخبر والتابع، ويؤكد الكلام الذي يشتمل عليه، كما قد يفيد معنى القصر، ويأتي فيما فيه مزيد اعتناء بالمعنى.

– مخالفة المذهب المشهور من القواعد النحوية عند العرب والنحاة يعد من ضعف التأليف، وقد ورد منه في استعمال الضمائر ما يتعلق بعود الضمير المتصل بالفاعل المقدم على المفعول المؤخر، واتصال الضمائر بـ(إلا)، وانفصال الضمير على خلاف الأصل، وما ورد من ذلك في الشعر العربي الفصيح قليل، وجاء لضرورة الشعر، وأغلبه مجهول النسبة أو بيت مفرد، مما يشير إلى أن ذلك ليس من عادة البلغاء، وإنما عرض في بعض الأوقات، ومع ذلك لم يقبل، والتقطه العلماء فعرَّفوا به وبمحل الخطأ فيه؛ إظهارا لرفض تكرار هذا وأمثاله مما يمس قواعد اللغة وأصولها.

هذا، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المراجع

الإتقان في علوم القرآن، عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٤م.

الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم، إبراهيم بن محمد بن عربشاه عصام الدين الحنفي، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، بدون.

الالتفات في البلاغة القرآنية، حسن طبل، دار الفكر العربي، ١٩٩٨م.

إنباء الأمراء بأنباء الوزراء، شمس الدين محمد بن علي بن خمارويه بن طولون الدمشقي الصالحي تحقيق: مهنّا حمد المهنّا، دار البشائر الاسلامية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م.

أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك لابن هشام الأنصاري، ومعه مصباح السالك إلى أوضح المسالك لبركات يوسف هبود، راجعه: يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت. بدون.

بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع، عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب، الطبعة السابعة عشر، ٢٠٠٥م.

تعليق الفرائد على تسهيل الفوائد، محمد بدر الدين بن أبي بكر بن عمر الدماميني، تحقيق: محمد بن عبد الرحمن بن محمد المفدى، الطبعة الأولى، ١٩٨٣م.

تفسير التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، ابن عاشور التونسي ، الدار التونسية للنشر – تونس، ١٩٨٤م.

تلخيص المفتاح في المعاني والبيان والبديع، للخطيب القزويني جلال الدين محمد بن عبد الرحمن، تعليق: ياسين الأيوبي، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م.

توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك، أبو محمد بدر الدين حسن بن قاسم بن عبد الله بن عليّ المرادي، تحقيق: عبد الرحمن علي سليمان، دار الفكر العربي، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م.

جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، أحمد زكي صفوت، المكتبة العلمية، بيروت – لبنان، بدون.

جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، السيد أحمد الهاشمي، تحقيق: حسن حمد، دار الجيل، بيروت، بدون.

حاشية الصبان على شرح الأشموني على ألفية ابن مالك ومعه شرح الشواهد للعيني، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، المكتبة التوفيقية، بدون.

الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، محمد علي النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، بدون.

الخلاصة في النحو، ألفية ابن مالك، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن مالك الأندلسي، تحقيق: عبد المحسن بن محمد القاسم، الطبعة الرابعة، ٢٠٢١م.

ديوان آداب العرب، إبراهيم العرب، وزارة المعارف العمومية، مصر، ١٩١٣م.

ديوان بهاء الدين زهير، أبو الفضل زهير بن محمد بن علي بن يحيى المهلبي، دار صادر، ١٩٦٤م.

ديوان حسان بن ثابت، حسان بن ثابت، شرح وتقديم عبدأ علي مهنا، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، ١٩٩٤م.

ديوان عمرو بن كلثوم، عمرو بن كلثوم بن مالك، جمع وتحقيق: إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، ١٩٩١م.

ديوان الفرزدق، همام بن صعصعة بن غالب التميمي، شرح وتقديم: علي فاعور، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م.

ديوان المتنبي، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٣م.
شذور الذهب في معرفة كلام العرب، عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله بن يوسف، أبو محمد، جمال الدين، ابن هشام، تحقيق: عبد الغني الدقر، الشركة المتحدة للتوزيع – سوريا، بدون.
شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، لابن عقيل، عبد الله بن عبد الرحمن العقيلي الهمداني المصري، ومعه منحة الجليل بتحقيق شرح ابن عقيل، لمحمد محيي الدين عبد الحميد، دار التراث – القاهرة، دار مصر للطباعة، سعيد جودة السحار وشركاه، الطبعة العشرون، ١٩٨٠م.
شرح التسهيل، تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد، محمد بن عبد الله، ابن مالك الطائي الجياني، أبو عبد الله، جمال الدين، تحقيق: عبد الرحمن السيد – محمد بدوي المختون، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة الأولى، ١٩٩٠م.
شرح ديوان عنترة، الخطيب التبريزي، تقديم: مجيد طراد، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، ١٩٩٢م.
شرح شواهد المغني، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، وقف على طبعه وعلق حواشيه: أحمد ظافر كوجان، مذيل وتعليقات: الشيخ محمد محمود ابن التلاميد التركزي الشنقيطي، لجنة التراث العربي، ١٩٦٦م.
شرح قطر الندى وبل الصدى، عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله بن يوسف، أبو محمد، جمال الدين، ابن هشام. تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة – المكتبة التجارية الكبرى بمصر، الطبعة الحادية عشر، ١٩٦٣م.
شرح كتاب الحدود في النحو، عبد الله بن أحمد الفاكهي، تحقيق: المتولي رمضان أحمد الدميري، مكتبة وهبة – القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٩٣م.

شروح التلخيص، وهي مختصر العلامة سعد الدين التفتازاني على تلخيص المفتاح للخطيب القزويني، ومواهب الفتاح بشرح تلخيص المفتاح لابن يعقوب المغربي، وعروس الأفراح شرح تلخيص المفتاح لبهاء الدين السبكي، والإيضاح للخطيب القزويني، وحاشية الدسوقي، دار الهادي، بيروت – لبنان، الطبعة الرابعة، ١٩٩٢م.

صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، ١٩٥٥م.

عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، أحمد بن علي بن عبد الكافي أبو حامد بهاء الدين السبكي، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م.

علم البديع عند الشيخ محمد محمد أبو موسى، كتبه وعلق حواشيه: محمود توفيق محمد سعد، مكتبة وهبة، الطبعة الأولى، ٢٠١٩م.

الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، محمود بن عمر بن أحمد الزمخشري، تحقيق وتعليق ودراسة: عادل أحمد عبد الموجود وآخرين، مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م.

لسان العرب للإمام العلامة ابن منظور، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، الطبعة الثالثة، ١٩٩٩م.

المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين بن الأثير نصر الله بن محمد، تحقيق: أحمد الحوفي – بدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، بدون.

المطول في شرح تلخيص المفتاح، سعد الدين التفتازاني وبهامشه حاشية المير سيد شريف، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، ٢٠١٣م.

معاني النحو، فاضل صالح السامرائي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع – الأردن، ٢٠٠٠م.

مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٩٧٩م.

مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح، لأبي العباس أحمد بن محمد بن محمد بن يعقوب المغربي، تحقيق: خليل إبراهيم خليل، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، بدون.

النحو الوافي، عباس حسن، دار المعارف، الطبعة الخامسة عشر، بدون.

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، ١٩٠٠م.